الدكتور أحمد رحمانى
أستاذ الدراسات القرآنية بالمعهد الوطنى
للتعليم العالى للعلوم الإسلامية - باتنة - الجزائر

مصادر التفسير الموضوعى

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

1419 هـ - 1998 م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله الذى أنزل القرآن تبيانا لكل شىء ، وهداية إلى الصراط المستقيم ، وأصلى وأسلم على رسول الله ﷺ الذى جاء بشيرًا ونذيرًا .

أما بعد : فإن موضوع هذا الكتاب هو مصادر التفسير الموضوعى ، ومن البديهى - لكى نتحدث عن المصادر - أن نقول كلمة فى الهدف من الكتابة عن المصادر .

إن مصادر أى علم تُعد فى الواقع هى المنابع التى يُزود بها القارىء نفسه عند الحاجة لكى يطمئن إلى المعارف التى يحملها أو التى يريد تقديمها للقراء أو طلاب المعرفة على المستوى الجامعى أو المستوى المعرفى العام .

ومصادر التفسير بصفة عامة كثيرة تضرب بجيرانها فى أعماق تاريخ التفسير عند المسلمين بدءًا من عهد الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم من بعده إلى يومنا هذا ، ولكن مصادر التفسير الموضوعى قليلة وربما كانت حديثة العهد نسبيا ، ذلك لأن التفكير فى التفسير الموضوعى بصفة خاصة ، وبالاعتماد على منهج خاص كان مقرونًا بظهور مصطلح « التفسير الموضوعى » وهو حديث العهد إذ هو وليد الثمانينات من هذا القرن .

ولعل الفترة التى استخدم فيها هى الفترة التى بدأ الحديث فيه عن الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم .

ولكن تطبيق منهج التفسير الموضوعى بمواصفات قريبة جدا مما هو عليه الآن تُعد قديمة نسبيا ، فنحن نجدها فى القرن الثامن عند البقاعى واضحة لا سـيما فى

تفســـيره (نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور) إذ كان قد اعتنى بمسألة التناسب بين السور مركزا على ترتيب أجزاء السورة مستهدفا الوقوف « على معرفة مقصود السورة » كما يقول ، بل لقد عد العلم المهتم بمسألة التناسب غاية فى النفاسة ·

ويمكن كذلك أن نعد دراسة ابن القيم الجوزية رحمه الله التى خصص لها فصلا فى كتابه « شفاء العليل » تحت عنوان « الطبع والختم والقفل والغل والسد والغشاوة والحائل بين الكافر وبين الإيمان » من أهم الدراسات التى استخدمت منهج التفسير الموضوعى ·

ولكن هناك فرقا بين منهج البقاعى رحمه الله وبين منهج ابن القيم ، إذ أن الأول يُعنى بوحدة الموضوع فى السورة بينما الثانى يُعنى بموضوع فى القرآن كله ، وسنسمى منهج الأول : المنهج الكشفى ، ومنهج الثانى : المنهج التجميعى ، ولا شك أن كليهما مهم فى مجاله ، وكلاهما قد حددت معالمه بشكل أساسى فى العصر الحديث ·

غير أن مرحلة التنظير لهذا التفسير الموضوعى بمنهجيه تُعد مرحلة عصرية أُنتجت مصادرها بعد الثمانينات من هذا القرن ، ولها السبب سنركز أساسا على مصادر التفسير الموضوعى عند المعاصرين ، ولئن كنا سنقدم نموذجا من هذا التفسير عند القدماء فما ذلك إلا لكى نبين من كثب علاقة حاضر هذا التفسير بماضيه ·

إن المصادر التى سنعرض لها فى هذا الكتاب بالدراسة والتحليل متنوعة ، وقد قصدنا من ذلك إعطاء صورة واضحة عن التأليف والبحث فى هذا المجال ·

وربما كان من المفيد أن نعتمد بعض الرسائل الجامعية التى تتعلق بهذا الموضوع لكى نعطى صورة واضحة عن طبيعة البحث فى هذا المجال ·

ومن أهم الدراسات التى سنعرضها هنا : نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى ، والعرب فى القرآن للشيخ عبد الحميد بن باديس ، ومقدمات فى التفسير الموضوعى لباقر الصدر ، ومدخل إلى التفسير الموضوعى لعبد الستار فتح الله سعيد ، ومباحث فى التفسير الموضوعى لمصطفى مسلم ، والتفسير الموضـــوعى لحكمت على حسين الخفاجى ، ونحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكـــريم للشـــيخ الغزالى ، وسنقوم بعد ذلك بقراءة موجزة لنموذج من تفسير الشيخ سعيد حوى

الموسـوم بـ : « الأساس فى التفسير » وإنما خصصنا هذا التفسير دون غيره لنبين اهتمامه بفكرة الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم ، من جهة ، ولنبين مواطن المبالغة فى النظرية التى انطلق منها فى تفسير القرآن من جهة ثانية .

وعلى الجملة فإن حديثنا عن المصادر هنا يستهدف تقديم صورة واضحة المعالم عن هذا المنهج الجديد فى التفسير ، لذلك لابد أن نعتمد فى تقديم هذه المصادر خطة تقوم على ثلاث خطوات أساسية ؛ فنعرض الكتاب أولا ، ثم نحلله ، ثم نقوم بتقييمه ونقده باختصار يتناسب مع الغرض من الكتاب ، وهو تقديم المصادر الأساسية فى التفسير الموضوعى ،ولا شك أن هذا العرض سوف لن يلم بكل ما كتب فى هذا المجال لأن الهدف ليس هو الفحص الكلى لها وإنما الهدف هو تقديم صورة واضحة المعالم عن هذا الاتجاه فى التفسير .

* * *

1 - نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور
لبرهان الدين البقاعى (- 885 هـ)

هذا الكتاب من أنفس الكتب فى مجال تفسير القرآن فى ضـــوء نظرية قديمة كانت تستهدف تفسير القرآن باعتباره كلاًّ متكاملا فى ســـوره وآياته هى نظرية « علم المناسبة » .

وقد ألفه برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعى المتوفى سنة 885 للهجرة فسَّر فيه القرآن الكريم كله تفسيرا لم نَرَ له مثيلا فى مجاله ، ذلك لأن صاحبه كان قد استهدف منذ البداية البحث فى التناسب بين سور القرآن وآياته ، مما جعله ينهج نهجا متميزا يكتشف به حقًّا الوحدة الموضوعية فى السور القرآنية ، ويضع يده على العلاقات التى تربط الآيات فى السورة الواحدة ، والتى تربط السور فى القرآن كله . وقد شعر هو نفسه بتميز منهجه فقال : « هذا كتاب عجاب رفيع الجناب فى فن ما رأيت من سبقنى إليه ولا عول ثاقب فكره عليه » [(1)] .

واسم التفسير « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » يدل دلالة كبيرة على الهدف الذى ينشده البقاعى منه ، فهو يقوم أساسا على قاعدة منهجية هى مراعاة التناسب بين الآيات فى السور من جهة ، ومراعاة ذلك بين السور المتجاورة فى ترتيب القرآن .

وقد بين صاحبه أهدافه من إنشاء هذا التفسير فى المقدمة ، حين ذكر أن القرآن أنزل أصلا « متناسبا سوره وآياته ، متشابها فواصله وغاياته » [(2)] ، فالتناسب فى القرآن بهذا المعنى كُلٌّ لا يتجزأ ، فهو موجود فى شكـــله وبنائه ، وفى محتواه وأهدافه .

---

(1) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور : ج1 ص 3 ط1 سنة 1995 - 1415 هـ دار الكتب العلمية بيروت . (2) نفسه .

وكتاب نظم الدرر يحتوى على مقدمة تبين المفاهيم التى بنى عليها منهجه ، والأهداف المتوخاة من هذا المنهج الذى استحدثه اعتمادا على خلفية إسلامية تمثل أفكار السابقين من العلماء الذين فكروا فى مسألة نظم القرآن الكريم ، والوحدة الموضوعية فى سوره ، مثل عبد القاهر الجرجانى والرازى وغيرهما ٠

وهو وإن ذهب إلى أنه قد فسر القرآن « فى فن ما رأيت من سبقنى إليه ولا عول ثاقب فكره عليه » فإنما نقبل منه هذا الكلام فى إطار ما تميز به حقًّا ، وهو تفسير القرآن فى ضوء نظرية التناسب تفسيرا كاملا ٠ أما أن يكون القدماء ممن كان قبله من العلماء لم يعول ثاقب فكرهم عليه ، فهذا ليس صحيحا ؛ لأن التجربة التى قام بها الرازى على المستوى النظرى والتطبيقى تعد فريدة من نوعها ،ودالة على استيعاب صاحبه لفكرة الوحدة الموضوعية فى السورة وقد بينا ذلك فى كتاب « التفسير الموضوعى نظرية وتطبيقا » ٠

هذا وسنعرض هذا الكتاب الهام فى نقطتين ؛ المقدمة والنموذج التطبيقى :

(أولا) تحليل المقدمة :

إن مقدمة تفسير نظم الدرر وضعت لتبين أن صاحب المؤلف يستهدف :

1 - ذكر مناسبات ترتيب السور والآيات ، وهو يعد هذا لا يتأتى إلا لمن يحسن التدبر وإنعام التفكر فى كتاب الله ٠

2 - بيان الأسماء التى يمكن أن تطلق على هذا النمط من التفسير ومنها أن يسمى « فتح الرحمن فى تناسب أجزاء القرآن » أو يسمى « ترجمان القرآن ومبدى مناسبات الفرقان » ، وهذه الأسماء الثلاثة التى يحب أن تطلق على هذا التفسير ، هى فى الواقع نعوت مختلفة لشىء واحد هو البحث فى « التناسب » ٠

ولكن كان يرى أن أنسب الأسماء له هو « ترجمان القرآن ومبدى مناسبات الفرقان » [1] فربما لأن هذا العنوان يعبر عن هدفين متضافرين فى هذا التفسير هما : ترجمة المعانى وبحث المناسبات ؛ إذ هما فى الحقـــيقة هدفاه الرئيسيان ، وهما متكاملان ٠

---

(1) نظم الدور فى تناسب الآيات والسور : ج 1 ص 5 ٠

3 - بيان القاعدة التى يقوم عليها « علم المناسبات » الذى هو النظرية الأساسية التى يقوم عليها منهج البحث فى تفسير نظم الدرر ·

فهو يرى أن علم المناسبات « علم تعرف منه علل الترتيب » ومعناه أن اكتشاف أسرار التناسب بين الآيات والسور يتطلب معرفة الأسباب والعلل التى من أجلها كان ذلك الترتيب على تلك الصورة فى ما بين السور من جهة ، وفى ما بين الآيات داخل السورة الواحدة من جهة أخرى ، ذلك لأن « علم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه » ،أى هناك أجزاء مرتبة وفق أسباب متعددة يتولى هذا العلم ، وهذه النظرية ، كشفها باعتبار أن هذه الأسباب والعلل هى التى بمعرفة حقيقتها نعرف طبيعة البناء الذى بنيت عليه تلك الأجزاء سوراً أو آيات فى سور ،وبمعنى آخر إن معرفة الأسباب والعلل هو الطريق الصحيح لتفسير ظاهرة النظم القرآنى العجيبة ·

وعلى هذا الأساس فإن موضوع علم المناسبات ، وهو بالطبع جانب من موضوع الكتاب ، هو « أجزاء الشىء المطلوب علم مناسبته » [1] بحيث يصبح التمكن من اكتشاف العلاقات القائمة بين الآيات فى السورة باعتبارها أجزاء تكون البناء الكامل لها ، واكتشاف العلاقات القائمة بين السور باعتبارها وحدات تتفاوت طولا وقصرا لتشكل فى تناسقها البناء العام للقرآن - هو تمكن من معرفة النظام الذى يقوم عليه تركيب القرآن الكريم كله مضمونا وشكلا ·

4 - كل ذلك من شأنه أن يسوق الحديث إلى مسألة أساسية هى « الثمرة » التى يريد أن يجنيها بواسطة هذا الجهد وهذا المنهج ، فما هى ثمرته ؟ ·

يصرح البقاعى قائلا : « ثمرته الاطلاع على الرتبة التى يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذى هو كلحمة النسب » [2] ·

فالثمرة إذا هى الاطلاع على رتبة الجزء سورة كان بالنسبة لترتيب القرآن كله ، أو آية بالنسبة لسورة واحدة منه ،وهذه الرتبة يحددها الارتباط والتعلق على مستويين ، مستوى ما قبل الجزء سورة أو آية ، ومستوى ما بعد الجزء سورة أو آية ·

---

(1) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور : ج 1 ص 5 ·

(2) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور : ج 1 ص 5 ·

5 - إن إدراك العلاقات بين الأجزاء يتطلب قدرة فائقة فى إدراك القرآن إدراكا كليا وإجماليا ، فى الوقت نفسه الذى يسطر الإدراك على مكانة كل جزء فى إطار ذلك الكل ، أى معرفة علاقات مجموع الأجزاء فى إطار الكل ،وهذا يتوقف على معرفة مقاصد السورة وأغراضها · والبقاعى يصوغ هذه القضية كما يلى : « تتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها » أى أن التمكن من معرفة العلل والأسباب التى رتب القرآن على أساسها هذا الترتيب المخصوص ، يتوقف على علم آخر هو علم المقاصـــد ، وأعنى هنا علم مقاصد الشريعة بالجملة وعلم مقاصد السور بصفة خاصة ·

وبعبارة أخرى : كلما كان الباحث قادرا على أن يهيمن على مقصد السورة هيمنة كاملة ، كان ذلك سبيلا ييسر إدراك أسرار العلاقات التى تربط بين الآيات فى تلك السورة ·

وفى الوقت نفسه يكون ذلك عاملا يمهد معرفة المقاصد المختلفة التى تستهدفها كل آية فى السورة ·

وبمعنى آخر : إن المعانى الجزئية التى تعبر عنها المبانى الجزئية لا يمكن أن تخرج عن المقاصد الكلية التى يرمى إليها بناء السورة ؛ ذلك لأن الجزئيات محكوم عليها أن تكون أدوات لخدمة الكليات فإذا فهمت مقاصد الكليات أمكن أن تعرف الأسباب التى أدت إلى تجاوز الجزئيات ولو كانت فى الظاهر تبدر متنـافرة ومتباعدة وهذا - فى نظرى - معنى قوله : « ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها » أى أن معرفة مقاصد السور يعين على معرفة مقاصد الآيات وإن توهمنا اختلافها فى الظاهر ، ويدفعنا إلى هذا الفهم ما ذكره فى المقدمة نفسها من أن الفطن الذى إذا « تأمل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها خفى عليه وجه ذلك ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متنائية المقاصد فظن أنها متنافرة،فحصل له من القيض والكرب أضعاف ما كان حصل له بالسماع من الهز والبسط ربما شككه ذلك بكثير وزلزل إيمانه وزحزح إيقانه » (1) .

إن من النتائج التى تتحقق بالاعتماد على هذا التفسير القائم على نظرية التناسب

(1) نفسه : 1 / 7 ·

« علم المناسبة » ، نتائج فى غاية الأهمية ومنها - فضلا عما سبق من حديث عن الهدفين الرئيســيين المتمثلين فى أحد أسمائه : « ترجمة القرآن ومبدى مناسبات الفرقان » :

(أ) **ترسيخ الإيمان** : وذلك لتمكن هذا المنهج من حل بعض الإشكالات المتعلقة بالبرهان على إعجاز القرآن ، ففى نظره « بهذا العلم يرسخ الإيمان فى القلب ويتمكن من اللب وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقتين :أحدهما نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب ، والثانى نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب »[1] .

(ب) الوقوف على الآيات التى تشكل أمر فهمها فى غياب التفسير القائم على نظرية التناسب : لأن بعض الآيات لا يفهم مرادها إلا بعد تحليلها فى ضوء المقاصد الكلية للسورة القرآنية ، وعليه فبهذا المنهج « يوقف على الحق من معانى آيات حار فيها المفسرون لتضييع هذا الباب من غير ارتياب »[2] .

(جـ) حل إشكالية التكرار الوارد فى القرآن : لا سيما ما يتعلق بتكرار القصص القرآنى ، إذ بهذا المنهج - فى نظره « يتبين لك أسرار القصص المكررات ، وأن كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى ادعى فى تلك السورة استدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذى سيقت له فى السورة السابقة ، ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض ، وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم والإيجاز والتطويل مع أنها لا يخالف شيء من ذلك أصل المعنى تكونت به القصة وعلى قدر غموض تلك المناسبات يكون وضوحها بعد انكشافها »[3] .

6 - الصعوبة المنهجية :

إن البقاعى لم يكن ممن يتجاهل جهود السابقين الذين عرضوا لمسألة التناسب فى القرآن ، فقد أقر بفضل من سبقه إلى هذا المنهج مثل العلامة أبى جعفر أحمد بن إبراهيم الأندلسى صاحب كتاب « البرهان فى ترتيب سور القرآن » والزركشى الشافعى

---

(1) نفسه ·
(2) نفسه : 1 / 8 ·
(3) نفسه ·

صاحب « البرهان فى علوم القرآن » ، والإمام فخر الدين الرازى ، والقاضى أبو بكر بن العربى ، ولكنه يرى أنهم وإن عرفوا المنهج وقدروه حق قدره فإنهم لن يؤلفوا تفسيرا يقوم عليه بصفة محمية ؛ فالأندلسى خصص كتابه « لبيان مناسبة تعقيب السورة بالسورة فقط ، يتعرض فيه للآيات » والزركشى قد اكتفى بالحديث عن قدر هذا المنهج ولم يعمد إلى تطبيقه ،والرازى أكثر من الاعتناء بالمناسبة ولكن لم يجعلها قاعدة أساسية لمنهجه [1] .

ومعنى ذلك أن هذا المنهج دقيق المسلك صعب المنال لذلك « قل اعتناء المفسرين بهذا النوع » [2] .

ويتجلى إحساسه بصعوبة هذا المنهج فى قوله : « فرب آية أقمت فى تأملها شهورا ومن أراد تصديق ذلك فليتأمل شيئا من الآيات قبل أن ينظر ما قلته ثم لينظره يظهر له مقدار ما تعبت » [3] .

7 – سورة التكاثر نموذج لتفسير البقاعى :

عند تأمل النماذج التطبيقية وجدناها تقوم على منهج واحد منظم لا يختلف أبدا ويراعى فيها الخطوات التالية :

1 – **بيان المقصود من السورة** :وفى سورة التكاثر يقول : « مقصودها التصريح بما أشارت إليه العاديات من أن سبب الهلاك يوم الجمع – الذى صورته القارعة – الجمع للمال والإخلاد إلى دار الزوال واسمها واضح الدلالة على ذلك » [4] .

2 – **مراعاة التناسب بين السورة السابقة والسور اللاحقة** : وقد ثبت له أنه « لما أثبت فى القارعة أمر الساعة وقسم الناس فيها إلى شقى وسعيد ، وختم بالشقى افتتح هذه بعلة الشقاوة ومبدأ الحشر لينزجر السامع عن هذا السبب ليكون من القسم الأول »[5] .

---

(1) نفسه : 1 / 5 - 6 .
(2) نفسه : 1 / 5 .
(3) نفسه : 1 / 8 .
(4) نفسه : ج 22 ، ص 225 .
(5) نفسه : ص 225 .

3 - **تفسير الآيات تفسيراً تحليليا** : وقد تم له ذلك دون أن ينسى موضوع السورة الأساسى الذى هو التكاثر ودوره فى إلهاء الخـــلق عن الآخـــرة ، وعليه فإن « التكاثر » « هو المباهاة والمفاخرة بكثرة الأعراض الفانية من متاع الدنيا: المال والجاه والبنين ونحوها مما هو شاغل عن الله فكان ذلك موجبا لصرف الهمة كلها إلى الجمع فصرفكم ذلك كله إلى اللهو » [1] .

وهكذا يحلل الكلمات المشكلة لآيات سورة التكاثر كلمة كلمة معتمدا فى ذلك على الترابط بين الكلمات فيما بينها من جهة ،وبينـــها وبين الموضوع العام من جهة ثانية ، ولذلك كان تحليله للآيات يدور فى فلك التناسب الذى يهتم بالسياق العام للسورة .

4 - **ربط خاتمة السورة بالمطلع** : ليبين أنه « **قد التحم آخرها بأولها على وجه هو من ألطف الخطاب ، وأدق المسالك فى النهى عما يجر إلى العذاب** ، لأن العاقل إذا علم أن بين يديه سؤالا عن كل ما يتلذذ به علم أنه يعوقه ذلك فى زمن السؤال عن لذاذات الجنة العوال الغوال ، فكان خوفه من مطلق السؤال مانعا له عن التنعم المباح فكيف بالمكروه ؟ فكيف ثم كيف بالمحرم ؟ فكيف إذا كان السؤال من ملك تذوب لهيئته الجبال ؟ » [2] .

والسؤال الذى يعنيه هنا هو قوله تعالى فى آخر السورة : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ فيبين أن الله سبحانه وتعالى : « قال مفخما بأداة التراضى (ثُمَّ) أى بعد أمور طويلة عظيمة مهولة جدا ﴿ لَتُسْأَلُنَّ ﴾ وعزتنا ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى إذا ترون الجحيم ، ﴿ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ أى الذى أداكم التكاثر إليه حتى عن الماء البارد فى الصيف والحار فى الشتاء هل كان استمتاعكم به على وجه السرف لإرادة الترف أو كان لإرادة القوة للنشأة إلى الخير » [3] .

5 - **ربط السورة اللاحقة بالسورة السابقة** : وقد بين أن سورة العصر مرتبطة

---

(1) نفسه .

(2) نفسه : ص 233 .

(3) نفسه : ص 231 - 232 .

بسورة التكاثر فقال : « لما كانت لذة هذه الدنيا الظاهرة التنعم بما فيها من المتاع وكان الإنسان مسؤولا بما شهد به ، ختم التكاثر عن ذلك النعيم متوعدًا برؤية الجحيم فكان ساكن هذه الدار على غاية الخطر فكان نعيمه فى غاية الكدر ، قال دالا على ذلك بأن أكثر الناس هالك مؤكدا بالقسم والأداة لما للأغلب من التكذيب لذلك إما بالقال أو بالحال : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ » [1] .

6 - وقد يستعين بأراء العلماء فى إثبات العلاقات الترابطية بين السور وقد اعتمد هنا على رأى لأبى جعفر بن الزبير رائع فى هذا الباب ، إذ قال : « لما قال تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ وتضمن ذلك إشارة إلى قصور نظر الإنسان وحصر إدراكه فى العاجل دون الآجل الذى فيه فوزه وفلاحه وذلك لبعده عن العلم بموجب الطبع ﴿ إِنَّمَا كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ أخبر سبحانه أن شأن الإنسان بما هو إنسان فقال : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ فالقصور شأنه والظلم طبعه والجهل حيلته فيحق أن يلهيه التكاثر ولا يدخل الله عليه روح الإيمان ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إلى آخرها » [2] .

ومجمل القول : أن البقاعى برهان الدين أبى الحسن إبراهيم بن عمر (- 885 هـ) على الرغم من تقدم الزمان الذى أنشأ فيه تفسيره الرائع « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » ، وعلى الرغم من أن المؤلفات التى بحثت مسألة التناسب كانت قليلة ، فإن تفسيره هذا كان فريدا من نوعه فى مجال التفسير الموضوعى خاصة وأن صاحبه لم يتوان فى الربط بين كل العلاقات التى أشار إلى ترابطها فى المقدمة فى أى موضع من المواضع سواء ما يتعلق بترابط السور المتتابعة ، أو ما يتعلق بالآيات فى السورة كما لم ينس فى تفسير أى سورة تحديد مقصدها والمحور الأساسى لموضوعها ، فالتكاثر مقصودها التصريح بما أشارت إليه العاديات ، والهمزة مقصودها بيان الحزب الأكبر الخاسر الذى ألهاه التكاثر ، وسورة الفيل مقصودها الدلالة على آخر الهمزة من إهلاك المكاثرين فى دار التعاضد والتناحر بالأسباب .

*　*　*

---

(1) نفسه : ص 236 .　(2) نفسه : 22 / 237 - 238 .

2 - منهج التفسير فى تصور ابن باديس

لم يمارس عبد الحميد بن باديس المسائل النظرية كثيراً فهو رجل عملى أكثر منه نظرى ، ولكن ذلك لم يمنع أن يتخلل دراساته العملية ، ولا سيما تفسيره للقرآن إشارات نظرية تكشف بوضوح عن منهج التفسير كما يتصوره ·

ولعل المنطلق الأساسى فى هذه الإشارات التى تحدد الملامح العامة لمنهجه يبدأ من اعتقاده الذى يشبه إلى حد كبير اعتقاد ابن تيمية ، وهو أن « القرآن أنزل للبيان ، ولا بيان إلا بالإفهام ، فكيف يكون فى القرآن لفظ لا يفهم له المعنى ؟ » [1] .

معنى هذا أن القرآن رسالة ، والرسالة تفقد قيمتها إذ لم تبن عن المراد ، ومن ثم يصبح فهم القرآن ضروريا إذ قد نزل - كما يقول ابن تيمية - « ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر فيه محكمه ومتشابهه وإن لم يعلم تأويله » [2] ، وكونه كذلك يقتضى أن يعمل الإنسان فكره فيه ويســـتغل كل الأدوات التى تسعفه لبلوغ هذا المقصد ، ليدرك أعماق الآيات التى لا يكفى فيها مجرد الفهم السطحى الساذج ، لأن ذلك لا يفيد فى إنشاء فقه يؤسس لرسالة تشريعية جاءت للتطبيق ، والتطبيق يستوجب الفقه الصحيح لكل مقاصد القرآن ومرامى آياته ·

غير أن الفهم السليم يتطلب المنهج السليم ، ومن هنا تساءلنا ما إذا كان للشيخ تصور نظري لأدوات الفهم ، وهل يمكن أن يقول باستخدام العقل فى ذلك ؟ أما أنه سيوقف الفقه والفهم على الموروث النقلى وحده ؟ ·

فى الواقع كان الشيخ يؤكد كثيرا فى المستوى النظرى على عاملين :

1- كثرة المعلومات ·

2- تنظيم هذه المعلومات ·

---

(1) مجالس التذكير : ص 359 ·

(2) ابن تيمية : مجموع فتاوى ابن تيمية : الجزء 13 ص 283 ·

فعلى هذين العاملين يعــلق نتائج جهود المفســر والباحث ، ويرى أنه « بقدر ما تكثر معلومات الإنسان ويصبح إدراكه لحقائقها ولنسبها ويستقيم تنظيمه لها تكثر اكتشافاته واستنباطاته فى عالمى المحسوس والمعقول ... وإذا لم يصبح إدراكه للحقائق أو لنسبها أو لم يستقم تنظيمه لها كان ما يتوصــل إليه بنظــره خطأ فى خطأ وفسادًا فى فساد ،ولا ينشأ عن هذين إلا الضرر فى المحسوس والضلال فى المعقول » [1] .

فالاكتشافات والاستنباطات وهى غاية أى مفسر وباحث فى القرآن الكريم تقوم على قاعدتين : تراكم المعلومات الصحيحة المسعفة فى حل ما استغلق أمره من النص من جهة ، وتنظيم المعلومات فى نسق معين يعين على الإدراك السليم لها .

وهذا الكلام يبين أهمية المنهج باعتباره وسيلة أساسية لتنظيم الأفكار ، كما يبين أهمية « المأثور » فى توجيه المنهج والتحكم فى أدواته .

ومن هنا بدا لنا أن ابن باديس يدير منهجه على ثنائية محورين هما :

1 - **الكم المعلوماتى** : وهذا يؤول إلى المأثور .

2 - **استقامة التنظيم** : وهو يؤول إلى المعقول .

فمنهما يتركب منهج متميز يتضافر غلى صنعه النقل والعقل ليكتشفا أغوار المحسوس والمعقول معا ، ولكن علينا أن نتساءل :

ما نصيب كل من النقل والعقل فى بلورة هذا المنهج ؟

هل يعطى العقل كامل حريته أم سيقيده بضوابط ؟

وما قيمة المأثور الذى يعتمده فى تفسير النص ؟

وهل يعنى بكثرة المعلومات المأثور فقط ؟ أم يعنى الإنتاج البشرى كله ؟ .

نعم إن الشيخ يرى أن « الإدراكات الحاصلة عن التفكير والنظر ليست على درجة واحدة فى القوة والضعف فمنها ما هو قوى معتبر ومنها ما هو ضعيف ساقط عن الاعتبار » [2] .

---

(1) مجالس التذكير : ص 138 - 139 .

(2) مجالس التذكير : ص 139 .

وهذه الإدراكات يرتبها على الشكل التالى :

1 - **العلم** : وهو إدراك أمر على وجه لا يحتمل أن يكون ذلك الأمر على وجه من الوجوه سواه وهو عام الاعتبار ·

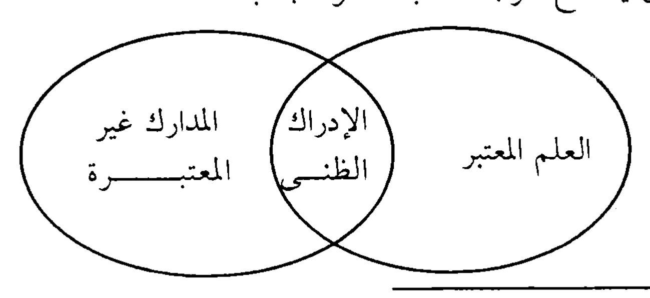
2 - **الظن** : وهو إدراك على وجه هو أرجح الوجوه المحتملة وهو معتبر عندما نتبين قوة رجحانه فيما لا يمكن فيه إلا ذاك ، وهذه هي الحال التى يطلق فيها لفظ العلم مجازاً ·

3 - **الوهم** : وهو إدراك الأمر على الوجه المرجوح ·

4 - **الشك** : وهو إدراك الأمر على وجـــهين ، أو وجوه متساوية فى الاحتمال ·

ولكن يؤكد فى آخر كلامه أن الظن والوهم والشك لا يعول عليهما فى الإدراكات وإنما المعول على « العلم » وحده ، فيقول : « بين الله تعالى لعباده فى محكم كتابه أنه لا يجوز لهم ولا يصح منهم البناء لأقوالهم وأعمالهم واعتقاداتهم إلا على إدراك واحد وهو العلم فقال تعالى :﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾[1] . . . فما كل ما نسمعه وما كل ما نراه نطوى عليه عقد قلوبنا بل علينا أن ننظر فيه ونفكر فإذا عرفناه عن بينة اعتقدناه وإلا تركناه حيـــث هـــو فى دائرة الشكــوك والأوهام أو الظنون التى لا تعتبر »[2] ·

وهذا يعنى أن ابن باديس يحدد للمدارك دائرتين متقاطعتين تحمل إحداهما العلم المعتبر وتحمل الثانية المدارك غير المعتبرة ، ولكن الدائرتين تتقاطعان فى عنصر الإدراك الظنى الذى يخضع للرجحان تبعا للقوة الجاذبة :



(1) الإسراء : 36 ·

(2) مجالس التذكير : ص 139 - 140 ·

ومعنى ذلك أن إحدى الدائرتين فقط هى التى ستكون محورا للأدوات المعتمدة فى تفسير النص القرآنى ،وأما الدائرة الثانية فهى دائرة غير معتبرة فى المناهج العلمية التى تتطلب اليقين ·

وهذايستدعى التساؤل حول دور « **العقل** » فى تفسير النص ما دام الشك والتوهم مرفوضين قطعا والظن يتطلب القوة المرجحة كما يستدعى التساؤل حول دور « التراكمات المعرفية » التى يتحكم فيها عامل « الزمان » بشكل كبير ·

إن ابن باديس حين يقرر أننا « بالنظر فى هذه الآيات نصل - بتيسير الله - **بعقولنا** إلى إدراك بدائع عجيبة وأسرار غريبة ما تزال تتجلى لنا ما دمنا نتأمل فيها **ونعتبر بها** ، وما يزال الإنسان يكتشف منها حقائق مضت عليه **أزمان وهو يعدها من المحال** ، ويجتبى منها فوائد ما كانت تخطر له فى أحقابه الماضية على بال » (1) .

إنما يقرر فى الحقيقة فاعلية عاملين أساسيين فى المنهج :

(أ) **عامل العقل** : الذى يعبر به الإنسان من المجهول إلى المعلوم عن طريق كشف الأسرار الغريبة ·

(ب) **عامل الزمان** : الذى يغذى باستمرار عقل الإنسان ومعارفه بالجديد الذى يضيف إلى المنهج لبنات تعين على كشف ما لم يكن يخطر ببال العالم النحرير فى فترة من فترات تاريخ الفكر الإنسانى ، يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس : « إن القرآن كتاب الدهر ومعجزاته الخالدة فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن ،وكذلك كلام نبينا صلى الله عليه وآله وسلم المبين له ، فكثيرا من متون الكتاب والسنة الواردة فى معضلات الكون ومشكلات الاجتماع لم تفهم أسرارها ومغـزاها إلا بتعـاقب الأزمنة وظهور ما يصدقها من سنن الله فى الكون ، وكم فسرت لنا حوادث زمن واكتشـافات العلم من غرائب آيات القرآن ومتون الحديث ، وأظهرت منها للمـتأخرين ما لم يظهـر للمتقدمين ، وأرتنا مصداق قوله ﷺ فى وصف القرآن : (لا تنقضى عجائبه) » (2) .

---

(1) مجالس التذكير : ص 359 ·

(2) مجالس التذكير : ص 411 ·

وهذا يعنى أن الشيخ عبد الحميد بن باديس يرى أن تطور العقل البشرى قمين بأن يكشف مجالات كثيرة لم تكتشف فى عصور التابعين من المفسرين ، بل ربما لم تخطر ببال أحدهم أو ربما كان يعدها من المحال ·

وهذا الطرح فى الواقع يعد طرحا غريبا لو أن الشيخ توقف عنده بعيدا عن بيان الحدود التى يستخدم فيها العقل ، لأن هذين العاملين وحدهما لا يسايران فى الحقيقة نظام الدوائر التى رسمها من قبل ، لا سيما وأن الشيخ قد قصر العلم على الدائرة المعتبرة ونفاه كلية عن الدائرة التى تنتظم الشك، والوهم والظن غير المرجح بقوة ·

وعليه فإن من اللازم الوقوف على حدود العقل فى منهج الشيخ ، وعند تأملنا له تبين أن اهتمامه بدور العقل فى مناهج التفسير لا يعنى العقل المطلق الذى لا تقيده ضوابط ، لأنه يعرف أن العقل الإنسانى وليد ظروف زمانية ومكانية وأنه من ثم محدود ، على الرغم من أنه وسيلة أساسية فى الإدراك ·

ولهذا السبب حذرنا بقدر ما دعانا قائلا : « إن استجلاء هذه الحقائق واستحصال هذه الفوائد من الآيات الكونية - على نفاستها وعظيم نفعها - محفوف بخطر الإعجاب بذلك العقل حتى يحسب أنه محيط بالحقائق كلها ، وأن مدركاتها يقينيات بأسرها فيؤديه حسبانه الأول إلى الفتنة بالمدركات فيحسب أنه لا شيء بعدها فقد يخرج إلى إنكار خالقها ، ويؤديه حسبانه الثانى إلى الذهاب فى ظنونه وأوهامه وفرضياته إلى غايات لا نسب بين اليقين وبينها ، فكان من لطف الله بالإنسان أن جعل لعقله حداً يقف عنده وينتهى إليه ليسلم من هذا الخطر ،خطر الإعجاب بالعقل»[1] ·

هذه هى صورة العقل كأداة فى منهج ابن باديس ، فهو أداة مهمة ، لكنها محدودة الفاعلية ، وعلى الباحث أن يدرك خطر الاعتماد عليها فى غير ما خلقت له ·

وقبل أن يتحدث الشيخ عن عجز العقل فى إدراك بعض آيات القرآن مثل الحروف التى تفتتح بها السور التى يعد خفاءها بمثابة منبه لعجز العقل الإنسانى عن

---

(1) مجالس التذكير : ص 359 - 360 ·

إدراك بعض الآيات القرآنية [1] كما يعجز عن إدراك بعض الآيات الكونية ، نجده يضرب أمثلة مختلفة « ففى آيات الله الكونية حقائق كثـــيرة تقف العقول حيارى أمامها ، وقد تشهد آثارها ولا تستطيع أن تعرف كنهها كحقيقة الكهرباء فى الكون ، وحقيقة الروح والعقل فى الإنسان ، فمثل هذه الحقائق المنغلقة التى يرتد عقل الإنسان إليه عنها خاسئا وهو حسير هى التى تعرفه بقدره ... فيقف بعقله عند حد **النظر ، والاعتبار والاستدلال** » [2] .

وبهذا تتحدد وظيفة العقل فى منهج ابن باديس ، ويتبين أنها وظيفة فعالة لكنها فى حد ثلاث حركات :

1- النظر والتأمل .

2- الاعتبار والقياس .

3- الاستدلال .

ولكن حتى هذه الحركة التى يسمح بها ابن باديس للعقل فى مجال التفسير فإنه يقيدها بنمط معين من ذوى الألباب ، ولم يتركها أبدا حرة حرية مطلقة ، ولهذا السبب فى نظرى دعا إلى منهج أسماه منهج الراسخين فى العلم .

منهج الراسخين فى العلم :

وعلى هذا الأساس ينبغى أن يكون المنهج هو منهج الراسخين فى العلم ، فيكون عمل الباحث فى شرع الله « هو الفهم لنصوص الآيات والأحاديث ومقاصد الشرع وكلام أئمة السلف وتحصيل الأحكام وحكمها والعقائد وأدلتها والآداب وفوائدها والمفاسد وأضرارها حتى إذا بلغ إلى حكم لم يعرف حكمته ، وقضاء لم يدر علته ، ذكر عجزه فوقف عنده فلم يكن من المرتابين ولا من المتكلفين ، وما يمنعه عجزه عن تعليل وتبيين وجه ذلك القليل عن المضى فى التفهـــم والتدبر لما بقى له من الكثير » [3] .

---

(1) نفسه ص 360 .

(2) نفسه : ص 360 .

(3) مجالس التذكير : ص 362 .

وهذا المنهج ، منهج الراسخين فى العلم ، الذى يقترحه ابن باديس للبحث العلمى فى شرع الله هو الذى يقترحه للبحث فى التفسير ، فعنده ينبغى أن يكون منهج الباحث فى « كتاب الله هو التفهم والتدبر لآياته والتفطن لتنبيهاته ووجوه دلالاته واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه على ما دلت عليه لغة العرب فى منظومها ومنثورها وما جاء من التفاسير المأثورة ، وما نقل من فهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم ، المشهود لهم بذلك من أمثالهم ، فإذا وقف أمام المتشابه رده إلى المحكم ، وإذا انتهى إلى فواتح السور ذكر عجزه فآمن بما لها من المعنى ، وقال : الله به أعلم ، فهذا السير النظرى والعمل العلمى المبنى على اليقين ... يزداد السائر على مقتضاه إيمانا وعلما وفوائد جمة ويسلم من الغرور والأوهام والفتنة وهو سبيل الراسخين الذين يقولون فيما لا يفهمونه : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ »[1] .

وبالمقارنة بين الخطوات التى يقترحها فى عمل كل من الباحث فى الشرع والباحث فى التفسير يتبين أنه يراها منهجا واحدا فى الحقيقة هو منهج الراسخين فى العلم .

والراسخون فى العلم فى منهجه هم الذين يقفون عند حد معين فى بحوثهم لا يتجاوزونه ، لكن هذا لا يعنى أنهم يعطلون العقل أو يلجمونه ؛ وإنما يعنى أنهم يوظفونه فى مجاله الذى خلق له .

فللباحث أن يسبر أعماق النصوص ، ويعيد النظر فى فهوم السابقين وكلام الأئمة ويحاول التفطن لوجوه الدلالات المختلفة ، ويعمل على استثارة علوم القرآن المتعلقة بشكله ومضمونه ، بل يحسن به أن يفسر القرآن بالقرآن وذلك برد المتشابه إلى المحكم ، ولكن كل ذلك شىء والوقوع فى الأوهام التى يمليها العقل العاجز شىء آخر ، والحقائق التى يستنبطها عقل الراسخين فى العلم شىء ثالث .

وهذه الإشكالية هى التى تقودنا لحديث ابن باديس عن الفرق بين عجز العقل وتعطيله ، وحسن استخدامه وتوظيفه ؛ لأنه فى الحقيقة أمر أساسى فى التفسير سواء

(1) مجالس التذكير : ص 362 ، آل عمران: 7 .

فى كيفية استخدام المأثور أو فى كيفية فهم السنن الكونية واستخدامها فى فهم النصوص القرآنية ·

الفرق بين عجز العقل وتعطيله :

إن الشيخ - كما رأينا - قد تبنى منهج الراسخين فى العلم فى مجال البحوث الشرعية ، وفى مجال البحوث التفسيرية ، وهو كما تبين لنا ، منهج يستخدم العقل المحفوف بالضوابط الشرعية ·

ومعنى ذلك أنه لا يقول بتعطيل العقل ؛ لأنه آلة خلقها الله لوظيفة الفهم والإفهام ، ولا يقول كذلك بتحريره التحرير المطلق الذى قد يجنى على الحقائق العلمية فيفسدها ·

وعليه فإن على الباحث فى هذين المجالين - مجال الدراسات الشرعية وتفسير القرآن - ومجال الآيات الكونية أن يتحرى الدقة فى استخدام العقل ، وذلك بأن يضع أمامه حقيقة ثابتة وهى : « ثبوت الحق والحكمة والنعمة فى جميعها وإمكان عجز العقل فى بعض المواضع والأحوال عن إدراكها فيكون عمله فى خلق الله هو النظر والبحث والتحليل والاكتشاف واستجلاء الحقائق الكونية واستخراج الفوائد العلمية والعملية إلى أقصى حد توصله إليه معلوماته وآلاته حتى إذا انتهى إلى مشكل استغلق عليه اعترف بعجزه ، ولم يرتكب من الأوهام والفروض البعيدة ما يكسو الحقيقة ظلمة ويوقع الباحث من بعدها فى ضلالة أو حيرة ، فكثيرا ما كانت الفروض الوهمية الموضوعة موضع اليقينيات سببا فى صد العقول عن النظر وطول أمد الخطأ والجهل » [1] .

إن ابن باديس بناء على هذا النص يقر بجميع خطوات المناهج العلمية لكونها علمية ، ولكنه يقف وقفة الحذر أمام خطوة واحدة هى « الفروض » أما خطوات البحث العلمى الأخرى بدءًا من النظر والبحث والتحليل والاكتشاف والاستـــنباط فيدفع المنهج فيها بقوة ليشتغل « إلى أقصى حد توصله إليه معلوماته وآلاته » دون أى قيد ·

---

(1) مجالس التذكير : ص 361 - 362 ·

والسبب فى التحذير من « الفروض » ليس لذات الفروض وإنما للكيفية التى توظف بها أحيانا حتى لا تلتبس الحقيقة بالجهل وتوقع الباحث فى ضلال ، خاصة حين توضع الفروض الوهمية موضع اليقينيات ، فتوهم الباحث إيهاما يكدر الرؤية العلمية ويجعلها بمعزل عن مراجعة النفس مما يدفع على التمادى فى الجهل ·

ويبدو لى أن الأمر الذى جعل الشيخ يركز على الاهتمام بوضع الفرضيات المناسبة بعيدًا عن الأوهام هو الدائرة التى حددها قبل هذا للمجال العلمى النافع لأنه يوصل إلى اليقينيات لبنائه على اليقينيات ·

ومعنى ذلك أن وضع الفروض يتوقف على قدرة الباحث على التمييز بين ثلاثة أنواع من الفرضيات : الفرضيات الوهمية التى لا نسب بينها وبين الحقائق العلمية والفرضيات الظنية التى تملك عناصر الترجيح والفرضيات العلمية ذات الطابع اليقينى ·

وهذا الطرح يخالف بطبيعة الحال المناهج التغريبية التى ترى أنه لا يقين فى العلم ، إذ هى بهذا المعنى لا تفصل بين الدائرتين اللتين كانتا متقاطعتين عند الشيخ ابن باديس ، ومن ثم لا تفرق بين الفروض الوهمية وآثارها ، والفروض العلمية ونتائجها ·

والحق إن السر الذى يكمن وراء طرح ابن باديس هو تفاعله مع الآيات القرآنية التى تتحدث عن أدوات المناهج كقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إلاَّ ظَنًّا ، إنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ الحَقِّ شَيْئًا ﴾ (1) ، وقوله : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (2) .

فالشيخ هنا يرى أن الظن لا يمكنه أن يكون خطوة ثابتة للوصول إلى الحقيقة ، وفى الوقت نفسه لا يرفض الظن رفضا مطلقا ، ومعنى ذلك أنه يجعل الظن فرضية من الفرضيات قد يصدقها البحث وقد يكذبها ، والذى يعين على التصديق أو التكذيب هو حسن استخدام الأدوات المنهجية التى تحددها الآية الثانية أى السمع

---

(1) يونس : 36 ·

(2) الإسراء : 36 ·

والبصر والفؤاد ، فالسمع يشير إلى ضرورة استخدام الوحى ، والبصر يشير إلى التجربة ، والفؤاد يشير إلى استخدام العقل ، ولكن فى جميع الأحوال لابد أن يشعر الباحث أنه هو المسؤول فى النهاية عن كيفية استخدام هذه الأدوات فى جميع مناهج مقاربة النص القرآنى ·

ولكى نتبين الكيفية التى يتعامل بها ابن باديس مع النص القرآنى على المستوى التطبيقى مقارنة بالمستوى النظرى نفضل أن نتوقف عند تفسيره لموضوع « العرب فى القرآن » تفسيرا موضوعيا على الرغم من أن الفترة التى كتب فيها هذا الموضوع لم يكن المصطلح المتعلق بالتفسير الموضوعى قد ظهر إلى الوجود ، وإن كانت بعض خطوات المنهج قد لوحظت عند بعض أساتذته المفضلين مثل ابن تيمية وابن القيم الجوزية من القدماء وصاحبى تفسير المنار من المحدثين ·

* * *

ملامح التفسير الموضوعى
فى تفسير الشيخ ابن باديس

توطئة :

التفسير الموضوعى منهج من المناهج الأصيلة فى الثقافة الإسلامية نجد جذورها فى جهود الفقهاء والمحدثين واضحة جلية بالنسبة لأحد منحيى التفسير الموضوعى بالمفهوم المطروح حديثا عند كل من عبد الستار فتح الله سعيد وباقر الصدر وغيرهما ممن ركز فى تعريفه لهذا التفسير على المنهج التجميعى الذى يستهدف دراسة الموضوعات المختلفة من عقدية واجتماعية وكونية من خلال القرآن [1] .

إذ فى الحقيقة ليس التبويب الذى وضعه البخارى للحديث باعتبار الموضوعات إلا عين المنهج الذى يستخدم الآن فى التفسير الموضوعى .

وليس من شك فى أن كلمة « كتاب » التى كانت تتكرر فى صحيح البخارى المضافة للموضوع المراد بالدرس لا تعنى عند التحقيق إلا الموضوع ، فهو حين يقول : (كتاب الإيمان - كتاب العلم - كتاب الوضوء - كتاب الغسل . . .) لا يقصد سوى موضوع الإيمان وموضوع العلم وموضوع الوضوء وموضوع الغسل وهكذا . . .

صحيح أن كلمة كتاب قد تعنى الفصل أو الباب فى الاصطلاحات المنهجية الحديثة ، ولكن ماذا يعنى الباب أو الفصل غير تحديد الموضوع وعزله عن الموضوعات الأخرى التى تشاركه فى المؤلف لتعبر عن الموضوع العام .

وإذا كان المنحى الثانى وهو الذى اعتمده الشيخ الغزالى بصفة خاصة فى كتابه « نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم » متأثرا بالشيخ عبد الله دراز فى كتابيه « مدخل إلى القرآن الكريم » و « النبأ العظيم » لم يظهر على يد المحدِّثين .

والفقهاء فإن جذوره قد ظهرت بشكل واضح لا يدع مجالا للشك فى تجربة البقاعى الذى فسر القرآن كله بالاعتماد على نظرية التناسب ليثبت فى تفسيره الموسوم بـ « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » العلاقات القائمة بين سور القرآن وآياته ،

---

(1) الإشارة إلى « الإيجاز فى بعض أنواع المجاز » : ص 221 .

كما ظهر الوعى بملامحه عند الشاطبى وعز الدين بن عبد السـلام فى كتابه « كتاب الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز » (1) ، وظهـرت تطبيقاته فى جـهود ابن القيم (2) .

إذ بغض النظر عن اختلاف موقف كل من الشاطبى وعز الدين بن عبد السلام من الوحدة الموضوعية فى سور القرآن الكريم فإن الوعى بها واضح فى كلامهما ، بل إن الشاطبى قد طبق التفسير الموضوعى بمفهومه هذا على سورة البقرة ، وبيّن من خلال ذلك وحدة الموضوع فيها ، بل وأكد على أن « اعتبار جهة النظم مثلا فى السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر ، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود كما أن الاقتصار على بعض الآية فى استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر فى جميعها » (3) .

ولا شك أن بيان ترابط القرآن فى السورة كترابطه فى الآية هو من الإشارات المبكرة التى تبين الوعى العميق بالوحدة الموضوعية فى سور القرآن الكريم ليس فقط بالنسبة لإدراك موضوع السورة لكن - وهذا هو المهم - بالنسبة لإدراك الترابط الشديد بين الأحكام فى إطار السورة الواحدة على اختلاف موضوعاتها الجزئية .

تعريف التفسير الموضوعى :

عرف التفسير الموضوعى من طرف المعاصرين تعريفات مختلفة تبعا للهدف الذى يرمى إليه كل باحث على حدة ، لذلك جاءت التعريفات قاصرة لا تعبر عن التفسير الموضوعى بصفة شاملة ، وربما دعا ذلك بعضهم ليعرفه تعريفين أو أكثر تبعا للمنحى الذى يريد أن ينحوه فى البحث (4) ، وكلها تدور حول : إما المنحى التجميعى وإما الوحدة الموضوعية .

ولهذا السبب أريد أن أعرفه تعريفا قد يكون شاملا بعـض الشـىء فأقول :

---

(1) نفسه .

(2) محمد أحمد السنباطى : منهج ابن القيم فى التفسير ص 84 - 118 .

(3) الموافقات : 3 / 415 .

(4) أنظر : فتح الله سعيد ، باقر الصدر ، محمد الغزالى ، عبد الحى الفرماوى ، مصطفى مسلم .

« التفسير الموضوعى منهج مستحدث فى دراسة القرآن يستهدف سبر أغوار **الموضوعات المختلفة من اجتماعية وأخلاقية وكونية وغيرها إما من خلال تفسير سورة القرآن باعتبارها كلاً موحداً يعبر عن موضوع واحد ، أو من خلال تفسير آيات جمعت لبناء موضوع تشكل الآيات عناصره الأساسية ، والغرض فيهما هو الخروج بتصور سليم حول الموضوع أو نظرية علمية فيه** » .

بعد أن عرفنا منهج ابن باديس على المستوى النظرى وعرفنا مفهوم التفسير الموضوعى ، يمكننا الآن فى ضوء ذلك أن نلج إلى جوهر القضية عند الشيخ ابن باديس لنعرف ما إذا كان المنهج الذى طبقه على موضوع « العرب فى القرآن » هو عين المنهج المتفق عليه عند المعاصرين أم لا .

جوهر ملامح التفسير الموضوعى عند ابن باديس :

بعد هذه التوطئة يمكننا أن نتساءل : هل كان هذا التصور واضحا فى زمن الشيخ ابن باديس ليمارسه ؟ أم أن الشيخ كان يمارسه بتلقائية دون أن يدرى أنه يمارس منهجا جديداً فى التفسير له قواعده وأصوله التى تميزه من المناهج الأخرى ؟ وإن كان قد مارسه ، فهل مارس منحييه التجميعى والكشفى معا ؟ أم أنه مارس أحدهما فقط ؟ أم أن الشيخ لم يعن بذلك تماماً وأننا نريد أن نحمله ما لم يحمل نفسه ؟ .

للإجابة عن هذه التساؤلات ينبغى قراءة أثر الشيخ فى مجال التفسير بإمعان بعيداً عن الأفكار المسبقة ، والانتماءات العمياء التى تجعل الباحثين يقوّلون العلماء ما لم يقولوا ، وينطقوهم بما لم ينطقهم به زمانهم .

نقول ذلك لأن ابن باديس كان يدرك تمام الإدراك دور البعد الزمانى فى تطوير مناهج التفسير ، لذلك قال الإبراهيمى فى حفل ختم الشيخ ابن باديس تفسيره : « وكانت تلك الدروس آية على أن القرآن لا يفسر إلا بلسانين لسان العرب ولسان الزمان » (1) .

من الناحية الزمانية كان الشيخ ابن باديس قد توفى قبل أن يعرف التفسير الموضوعى طريقه بالصورة المعاصرة ، إذ كانت البدايات المعاصرة قد بدأت بشكل

---

(1) تصدير لكتاب : مجالس التذكير : بقلم الإبراهيمى : ص 26 .

واضح فى الثمانينات من هذا القرن ، والشـــيخ قد توفى سنة 1940 م ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون الشيخ قد تعرف على الطريقة التى اكتشفها الشاطبى ودعا إليها من قبل ، أو تعرف على طريقة ابن القيم وبعض المعاصرين المحدثين .

غير أن الشيخ عبد الحميد بن باديس إن كان قد تأثر بمناهج المحدثين ، وهو رجل سلفى واعٍ بمنهج السلف ، من المحدّثين والمفسرين على حد سواء ، أو تأثر بمكتشفات الشاطبى فإن ذلك لا يعنى أنه قد سار على طريقتهم فى التفسير ، سواء بالنسبة لطريقة المحدثين أو طريقة الشاطبى .

ولهذا السبب لا يمكننا أن نعد ما أنجزه ابن باديس فى التفسير منتميا لإحدى الطريقتين ، وإنما كل ما نستطيع قوله هو أن للشيخ ابن باديس فى رحلاته التى دامت خمسا وعشرين سنة (من 1913 إلى 1938) مع تفسير كتاب الله تجارب مختلفة ، جاد بها الزمان درى الشيخ باختلافها عن بعضها أم لم يدر ، لأن هذا من طبائع الجهود البشرية حين يمتد بها الزمان هذا الامتداد الذى بلغ ربع قرن .

مختلف تجارب ابن باديس :

حين تفحصت ما وصلنا من تفسير الشيخ - وهو قليل من كثير ضاع بسبب كسل طلابه مع الأسف الذين لم يكونوا منه كما كان رشيد رضا من الشيخ محمد عبده - وجدت الشيخ قد نوَّع فى طريقة التفسير تنويعًا كبيرًا ، بحيث يمكننا لو أن الهدف من الدراسة هو بيان منهجه بصفة عامة أن نقف على قواعد مختلفة قد تؤدى بنا إلى أن نكتشف معظم قواعد المناهج فى هذا القليل الذى وصلنا تحـــت عنوان : « مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير » .

فنحن حين نفتح الكتاب على أول موضوع فيه نجده من صميم التفسير الموضوعى .

فالموضوع هو « الذكر » وقد استهله بتمهيد جاء فيه « الذكر أصل من أصول الدين العظيمة ، أو هو الدين كله ، ولذا امتلأ القرآن العظيم بالآيات المشتملة عليه ، فالمسلم إذًا شديد الحاجة إلى معرفته وفقهه ، وطريقة العمل به ، وقد تعرضنا لبيان ذلك فيما سيأتى ، وجعلنا الكلام فى قسمين وختمناه بالتحذير مما خرج عن سوء

القصد بغلو أو تقصير ليكون الواقف عليه على بصيرة مما يأتى منه أو يدع » [1] .

فلو تأملنا هذا التمهيد لوجدناه يشتمل على إشارات لخطوات التفسير الموضوعى فقد عرّف الموضوع وحدده وأشار إلى جمع الآيات التى تشكل بناءه ، ثم بين الحاجة إليه ونبه على خطورة الخلط بين الموضوعات ، وكشف عن الغرض من الموضوع وهو تكوين بصيرة محددة حوله .

ولدى تتبعنا للموضوع وجدناه يبدأ بالحديث عن « التضاد » الواقع بين موضوع الذكر وموضوع النسيان ، وما يرادفه من ألفاظ كغفلة القلب وغطاء العين والعجز عن السمع ، وكلها كلمات يستخرجها بالاعتماد على القراءة الواعية للآيات المتعلقة بالموضوع مثل : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [2] . ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾[3] - ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [4] - ﴿ قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُم ذِكْرًا * رَّسُولاً ﴾[5] - ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ [6] .

فهذه الآيات وغيرها كثير قد جمعت لتشكيل عناصر الموضوع ، مما ساعده على أن يقسم بناء الموضوع على الشكل التالى :

(أ) القسم العلمى :

أ / 1 - دلالة الكلمة .

أ / 2 - أقسام الذكر .

أ / 2 - 1 - ذكر القلب وهو على ثلاثة ضروب : (التفكير + العقد + الاستحضار) .

أ / 2 - 2 - ذكر اللسان وهو ضربان : (ذكر الله ثناء + ذكره دعوة) .

أ / 2 - 3 - ذكر الجوارح وهو ضرب واحد : (استعمالها فى الطاعات) .

(ب) القسم العملى :

ويؤسس العمل فيه على السنة ، مما يبين ترابط الموضوع فى ذهن الشيخ ترابطا

---

(1) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير : ص 28 .

(2) الكهف : 63 . (3) الكهف : 28 . (4) الكهف : 101 .

(5) الطلاق : 10 - 11 . (6) الأنبياء : 50 .

وثيقا يكشف عن إدراكه لطبيعة العلاقة القائمة بين القرآن والسنة فى تحديد أطراف الموضوع تحديدًا غفل عنه بعض المعاصرين الذين يحذرون من استخدام السنة فى التفسير الموضوعى حفاظًا على وحدته القرآنية [1] .

يقول الشيخ : « وكما تلقينا هذا الأمر وهذا الوعد -﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ﴾[2] - عن رسول الله - ﷺ - كذلك علينا أن نتلقى عنه كيف يعمل به ، فهو المبلغ عن الله - تعالى - بقوله وفعله والمبين كذلك بهما » [3] .

(ج) التحذير :

وفى هذا العنصر تأكيد على ضرورة الربط بين القسمين السابقين إذ « ربما شغل اللسان بالتعلم والعلم عن الأذكار المأثورة حتى يتركها الطالب جملة ويكون عنها من الغافلين ، فيحرم من خير كثير وعلــم غزير ، وقد كان - ﷺ - معلــم الخلق وما كان يغفل عن تلك الأذكار » [4] .

هذا هو الموضوع الأول فى الكتاب ، وهو فى صميم التفسير الموضوعى ، وقد نشره الشيخ فى مجلة الشهاب : مارس سنة 1929 .

ونستنتج من ذلك أن الشيخ قد كشف المنهج فى وقت مبكر جدًّا بالنسبة لجهود المعاصرين ، وأن هذا الجهد كان يحتوى على كامل خطوات منهج التفسير الموضوعى التجميعى التى حصرها مصطفى مسلم [5] فى :

(اختيار الموضوع وجمع الآيات وترتيبها ودراستها واستنباط العناصر الأساسية ثم تفسيرها إجمالا وإبراز الحقائق وعرضها) . بل إن الشيخ قد أشار لخطوة لم تذكر هنا وهى تحديد الغرض .

ولم يكتف الشيخ بهذا الموضوع بل أردفه بموضوع قريب منه هو « التذكير » وقد نشره فى شهر فيفرى 1929 أى قبل الأول بشهر ، لكن الذين جمعوا النصوص التفسيرية لم يراعوا أهمية الترتيب مع الأسف .

---

(1) أنظر مثلا : مصطفى مسلم : مباحث فى التفسير الموضوعى : ص 39 .
(2) البقرة : 152 . (3) مجالس التذكير : ص 32 .
(4) نفسه : ص 33 .
(5) مصطفى مسلم : مباحث فى التفسير الموضوعى : ص 31 - 39 .

ويليه موضوع ثالث هو « أفضل الأذكار » وقد طبـــق عليه المنهج السابق بخطواته ، ونشره فى ماى 1929 ·

وفى فيفرى 1939 أى بعد عشر سنوات تقريبا تنشر الشهاب موضوع « العرب فى القرآن »[1] ، وهو موضوع يغنى عنوانه عن أى بيان ·

فهو يتحدث عن نفسه بنفـــسه ، وقد جمـــع لهذا الموضوع ما يزيد عن عشرين آية ، هى التى تشكل العناصر الأساسية للموضوع ، وهى مركبة كما يلى :

1 - **مقدمة** : وتتناول الدعوة إلى الاهتمام بتاريخ العرب ومدنهم ودولهم وخصائصهم قبل الإسلام والبحث فى سر اختيار الله لهم لتبليغ الرسالة ·

2 - **سر نزول القرآن بلسانهم** : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾[2] ، وسر توسعته على سبعة أحرف ·

3 - **بعث الرسول من أنفسهم** : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [3] ·

4 - **بيان أن سر ذكر القومية**﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[4] ، يكمن فى عناية القرآن بإحياء الشرف فى نفوس العرب ليهيئهم لسياسة البشر ·

5 - **مقارنة بين المقومات النفسية العربية والمقومات النفسية الإسرائيلية الذليلة :** والخروج بنتيجة هى « أن الأمة العربية استطاعت أن تنهض بالعالم كله وأن تظهر دين الله على الدين كله،وأما بنو إسرائيل فإنهم ما استطاعوا أن ينهضوا حتى بأنفسهم » ·

6 - **تحديد مكان الدعوة** : وذلك ببيان لماذا كان منبع الرسالة مكة ، ولماذا أختيرت فى وسط الجزيرة بالضبط ؟ والسر فيما يرى هو أن الوسط بعيد عن المؤثرات الخارجية فى الطباع والألسنة فأطراف الجزيرة لم تخل من لوثة فى الطبـــع جاءت من

---

(1) مجالس التذكير : ص 425 - 438 ·

(2) الزخرف : 3 ·
(3) التوبة : 128 ·

(4) الزخرف : 44 ·

الاختلاط بالأجنبى فاليمن تأثرت بالحبشة والفرس ، والعراق والجزيرة تأثرت بالطباع الفارسية ، أما أهل مكة والمدينة فلم يتأثروا بأى لسان أو طبع .

7 - **حظ العرب من القرآن** : وفيه إشارات ذكية لتصحيح المنهج التاريخى يقول فيها : « والتاريخ يجب أن لا ينظر من جهة واحدة بل من جهات متعددة ، وفى العرب نواح تجتبى ونواح تجتنب ، وجهات تذم وتقبح وجهات يثنى عليها وتمدح وهذه هى طريقة القرآن بعينها فهو يعيب من العرب رذائلهم النفسية كالوثنية ، ونقائصهم الفعلية كالقسوة والقتل ، وينوه بصفاتهم الإنسانية التى شادوا بها مدنياتهم السالفة واستحقوا بها النهوض بمدنية المدنيات ،ولنذكر عاداً فهى أمة عربية ذات تاريخ قديم ومدنية باذخة ، ذكرها القرآن فذكرها بالقوة والصولة وعزة الجانب ، ونعى عليها الصفات الذميمة التى تنشأ عن القوة » .

8 - **يستحضر الآيات المتعلقة بعاد ويحللها** : ليبرز كل جوانب مدنيتها سواء ما يتعلق بجوانب السلب ، أو ما يتعلق بالإيجاب ليصل إلى شهادة الله عليها فى أنها ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلاَدِ﴾[1] ،ولكن ذلك لم يشفع لها فأهلكها الله لما تجبرت .

9- **يضرب مثالا لمدنية عربية أخرى** : هى ثمود ويحلل الآيات المتعلقة بها .

10 - **يضرب مثالا بحضارة العرب فى اليمن** : مبينا ما وصلت إليه سبأ من « مدنية زاهرة مستكملة الأدوات » لم يحطمها غير كفرهم ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾[2] .

11 - **يتوقف عند نظام الشورى فى مملكة سبأ قائلا** : « ولعل كاتبا من كتابنا يتناول هذا البحث بحث (الانتخاب فى الإسلام) ولئن استرشد القرآن فى هذا الباب ليرشدنه » .

وبهذا يكون قد اقترح موضوعا جديدا فى التفسير الموضوعى بوضوح .

12 - **الخاتمة** : وكانت بمثابة خلاصة تبين التصور العام لموضوع العرب فى القرآن وهو قوله : « هذه مدنيات ضخمة عبرت فى هذه الأمة التى أهلها الله لحمل الرسالة الإلهية إلى العالم ،وهذه بعض خصائص هذه الأمة التى هيأها للنهوض بالعالم وإنقاذه من شرور الوثنية **وبنيتها** ومن ضلال العبودية بجميع أصنافها ، وأن

---

(1) الفجر : 8 . (2) سبأ : 16 .

موضوع القومية العربية مترامى الأطراف ، وليس من الممكن الإحاطة به فى مثل هذا الخطاب ، وحسبى أن أكون قد خدمتها من هذه الناحية التى هى خدمة للإسلام والقرآن » [1] .

وخلاصة القول : إن الشيخ عبد الحميد بن باديس قد درس القرآن الكريم دراسة موضوعية مبكرة ، وأنه كان قد استوعب المنهج استيعابا جيدا يتبين لمن يتتبع خطواته فى كل الموضوعات المذكـــورة جليًّا واضحا ؛ فهو يبدأ تفسيره بتحديد الموضوع ، ثم يقسمه إلى عناصر ، ويحلل تلك العناصر فى إطار الفكر المهيمنة على الموضوع ، جاعلا القرآن الكـــريم وحده مرشدًا له فى رسم المعالم الأساسية للموضوع ، محللا فيها التصور العام لموضوع بحثه .

ولكن كل ذلك كان يتعلق بالتفسير الموضوعى التجميعى فهل فسر القرآن باعتبار الوحدة الموضوعية ؟ .

نعم لقد فسر المعوذتين تفسيرًا ينم عن إدراكه لخطوات منهج التفسير الموضوعى الكشفى ، ولكن مجال البحث يضيق عن عرضه هنا لذلك سنرجئه لحديث آخر بحول الله ، أما الآن فيكفى أن أعرض خصائص تفسيره بصفة مجملة .

خصائص تفسير الشيخ ابن باديس :

حينما احتفل الشعب الجزائرى بختم الشيخ عبد الحميد تفسيره الشفاهى الذى دام خمسا وعشرين سنة (1932 - 1948) كتب أخوه وصديق دربه الشيخ البشير الإبراهيمى الذى كان منه بمثابة الشيخ رشيد رضا من محمد عبده فى بعض الموضوعات يقول : « جاء أخونا وصديقنا الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قائد تلك النهضة بالجزائر بتفسيره لكلام الله على تلك الطريقة وهو ممن لا يقصر عمن دكرناهم - يعنى الأمير صديق حسن خان والإمام محمود الألوس ، والأستاذ محمد عبده ، ومحمد رشيد رضا - فى استعمال وسائلها من ملكة بيانية راسخة ، وسعة اطلاع على السنة وتفقه فيها وغوص على أسرارها وإحاطة وباع مديد فى علم الاجتماع البشرى وعوارضه ، وإلمام بمنتجات العقول ومستحدثات الاختراع

---

(1) مجالس التذكير : ص 425 - 438 .

ومستجدات العمران ، يمد ذلك كله قوة خطابية قليلة النظير وقلم كاتب لا تقل له شباة ، بارك الله فى عمر الأستاذ فأتم تفسير كتاب الله ببيانه المشرق فى خمس وعشرين عاما من غير أن تختل أعماله العلمية الكثيرة ، ولا أعماله المستغرقة لدقائقه فى سبيل هذه النهضة [1] .

وهذا النص الذى كتبه الإبراهيمى فى حياة المفسر يعد شهادة أمينة على خصائص التفسير عنده ، لأن هذه الشهادة صدرت من رجل حضر حلقات الذكر ، وهو على مستوى علمى مكين لا يقل عن مستوى المفسر نفسه .

وإنما نستخدم هذه الشهادة ونحن بصدد الحديث عن الخصائص ؛ لأن جزءا كبيرا من التفسير قد ذهب أدراج الرياح ، ولم يسجل لنا التاريخ منه سوى تلك الدروس التى سجلها المفسر بنفسه أو تلك التى سجلها الإبراهيمى فى بعض الجلسات التى حضرها كتفسير المعوذتين [2] ، وهذه وإن كانت مهمة جدا فإنها لا يمكن بأى حال أن تعيننا على استخراج الخصائص كلها ، لا سيما وإن المفسر قد اعتمد فى عمله هذا على الإلقاء الشفاهى بشكل أساسى .

ولا شك أن الخصائص التى يذكرها الإبراهيمى هنا تتمثل فى النقاط الآتية :

1 - التمكن البيانى والرسوخ فى علوم البلاغة ، وهى من الشروط الأساسية التى يشترطها المفسرون فى من يقدم على هذا العمل [3] .

2- سعة الاطلاع على السنة والتفقه فيها والغوص على أسرارها .

3- الإحاطة بعلم الاجتماع البشرى .

4- الإلمام بالإنتاج العلمى فى مختلف الفنون .

5- قوة المخاطبة .

وهذه الخصائص كما ترى بعضها يرتبط بالتفسير الشفاهى خاصة ، كالخطابة ، وبعضها ينسحب على المكتوب أيضا ، وهى خصـــائص يعيدها الإبراهيمى فى نص

---

(1) تمهيد وتقدير : تفسير ابن باديس بقلم البشير الإبراهيمى ص 26 - 27 .

(2) تفسير ابن باديس : ص 474 - 502 .

(3) انظر : مقدمة الكشاف للزمخشرى : ومقدمة تفسير كل من القرطبى وابن عاشور .

آخر ، كتبه بعد موت الإمام بثمانية حجج (1948) قال فيه : « كان للأخ الصديق عبد الحميد بن باديس رحمه الله ذوق خاص فى فهم القرآن كأنه حاسة زائدة خص بها ، يرفده بعد الذكاء المشرق والقريحة الوقادة والبصيرة النافذة بيان ناصع مديد فى علم الاجتماع ، ورأى سديد فى عوارضه وأمراضه يمد ذلك كله شجاعة فى الرأى وشجاعة فى القول لم يرزقهما إلا الأفذاذ المعدودون فى البشر »[1] .

إن هذا النص الثانى يذكر الخصائص السابقة بشىء من التفصيل ويضيف خصائص أخرى بعضها عام وبعضها يخص التفسير الشفهى منها :

1- الذوق الخاص فى فهم القرآن .

2- الذكاء المشرق .

3 - البصيرة النافذة .

4 - اطلاع واسع فى العلوم النفسية والكونية .

5 - شجاعة فى الرأى والقول .

والحق أن هذه الخصائص وتلك ، يتطلب وضع اليد عليها وقفات طويلة أمام النصوص التفسيرية التى كتبها بنفسه ، بل ونشرها تباعا فى الصحف ، لأن دراستها وفق الترتيب الزمانى الذى أعدها فيها يعيننا على الوقوف على الثابت من تلك الخصائص والمتغير منها .

بل إن الوقوف على كل المقالات التفسيرية قد يفيدنا بخصائص أخرى لم يذكرها الإبراهيمى فى النصين السابقين ، لا سيما الخصائص التى يتميز بها منهجه فى التفسير عن بقية المناهج ، كإفراد دراسة للعرب فى القرآن مما جعله يشق طريقا نحو التفسير الموضوعى ، لم ينقصه من خطوات هذا المنهج إلا استخدام المصطلح - ومثل الربط بين سورتى المعوذتين لاشتراكهما فى الموضوع الواحد ، ومثل التركيز على إبراز عنصر القدوة كلما أحس بأن الموضوع يقدم ذلك كقوله : « على الداعى إلى الله والمناظر فى العلم أن يقصد إحقاق الحق وإبطال الباطل واقتناع الخصم بالخلق وجلبه إليه فيقتصر

---

(1) الإبراهيمى : مقدمة تفسير ابن باديس ص 32 - 33 - منشورات المعارف الجزائر .

من كل حديثه علـى ما يحصـل له ذلك ويتجنـب ذكر العيوب والمثالب ولو كانت هنالك عيوب ومثالب اقتداء بهذا الأدب القرآنى النبوى فى التجاوز مما فى القوم . . . » [1] .

ومثل الخاصية الكبرى التى لا يتميز بها وحده ولكن يتميز بها منهج المصلحين الذين عاصروه جميعا مثل الشيخ محمد عبده والشيخ جمال الدين الأفغانى والشيخ رشيد رضا ، هذه الخاصية هى التى ذكرها الدكتور محمد النويهى حين قال : « إنه واحد من أولئك الذين رأوا فى الإسلام نظاما لحياة الإنسان لأنه إنسان فى أى وقت وفى أى مكان ،ورأوا الإيمان بالله غاية الحياة الدنيا ، ورأوا القرآن وحدة بها اكتفاؤها الذاتى فى التوجيه واكتفاؤها الذاتى فى التفسير ، واكتفاؤها الذاتى فى تحديد معالم البشرية وتاريخها وقوانين تطورها . . . عبد الحميد بن باديس فى تفسيره فى مجالس التذكير اتخذ هذا الرأى قاعدة فيما شرح » [2] .

بمعنى آخر إن منهج الشيخ قد تميز بخاصية هى الاعتماد على التفسير فى إصلاح الأمة اعتمادا كليا ، فهو لم يكن يفسر القرآن ليزيل عن بعض آياته الغموض - إن كان هناك غموض - ولكن كان يتخذ من القرآن محوراً لطرح قضايا إصلاحية مختلفة فى العقيدة والأخلاق والاجتماع وغير ذلك ، وقد تجتمع قضايا متعددة على اختلافها فى درس واحد كما فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . . . ﴾ [3] .

فقد تعرض خلال تفسيره لهذه الآية - بعد بيان المعنى - إلى المخالفات الجائزة ، وعزة العلم وسلطانه ، ومدارك العقيدة ، وتحقيق تاريخى ، وعظمة المملكة العربية اليمنية ، وتفوق العرب على الإسرائيليين ، وولاية المرأة الملك [4] .

ولا شك إن من يتتبع تفسيره بدقة سيقف على خصائص كثيرة تميز منهجه كل التمييز عن تفاسير القدماء والمحدثين على حد سواء ، والسر فى ذلك هو تغير البيئة

---

(1) تفسير ابن باديس :ص 419 .

(2) محمد النولى : مقدمة تفسير ابن باديس ص 9 .

(3) النمل : 22 .

(4) تفسير ابن باديس : ص 341 - 346 .

والأهداف والغايات ، فقد كان الشيخ فى الجزائر يفسر القرآن لغرض غير أغراض غيره ، وفى بيئة كان يأكلها مرضان وينهشانها نهشًا هما : الاستعمار وفساد الدين ·

ومن ثم كان لمنهجه فى التفسير ذوق خاص ، تميزه تلك العناوين الصغيرة التى يفصل بها بين الافكار التى يطرحها وهو يفسر آية من الآيات عن طريق الاستنباط والاستنتاج الواعى الذى يستنبط من الآيات ما يصلح لتوجيه الوعى فى ذلك الوقت بالضبط ، وبمعنى آخر : إنه كان يراعى فى تفسير النص مقتضيات الأحوال فيجعل لكل مقام مقالا يليق به ·

وقد لاحظت أن العناوين الصغيرة التى كان يضعها أثناء تفسيره لآية من الآيات يتحرى فيها كل الدقة لتحدد الفكرة وتشد الانتباه فتخدم الغرض ·

* * *

3 - البداية فى التفسير الموضوعى لعبد الحي الفرماوى

كتاب البداية فى التفسير الموضوعى عنوان مؤلف للدكتور عبد الحى الفرماوى ، وقد طبع فى طبعته الثانية سنة 1297 هـ الموافق لـ 1977 م ، وعنـــوانه الكامـــل هـــو « البداية فى التفسير الموضوعى - دراسة منهجية موضوعية » .

ويبدو أن المؤلف قد شعر أنه يكتب فى فترة تعد بداية لمنهج جديد من مناهج التفسير ،ولذلك عدَّ كتابه « بداية » ، وأحسب أنه يعنى بالبداية ، بداية شق الطريق الجديد بالنسبة له ، وذلك لأنه قد اعتمد بعض المؤلفات التى عرضت للمنهج بوجه من الوجوه ، مثل الدكتور أحمد السيد الكومى فى كتابه « التفسير الموضـــوعى » والدكتور حجازى فى كتابه : « الوحدة الموضوعية فى القرآن » والدكتور أحمد مهنّا فى كتابه : الإنسان فى القرآن الكريم ، وغير ذلك من المراجع الحديثة التى اعتمدها فى بحثه .

لهذا يبدو أنه لم يكن يعنى بالبداية ، النشأة أو الاهتمام الحديث ، بقدر ما يعنى بداية اهتمامه هو بالموضوع ، ولكن هذا لا يعنى أن كتابه لم يكن قد ظهر فى فترة مبكرة ، إذ يعد ظهور الكتاب فى طبعته الثانية فى هذه الفترة داخلا فى البدايات على كل حال .

ولهذا السبب فإن كتابه إن لم يتصف بالإبداع والسبق فإنه يعد ثمرة قد نضجت بعض النضج فى فترة مبكرة نسبيا ، لا سيما إذا نظرنا إلى طريقة الطرح ومنهج صاحبه فيه على الخصوص .

والكتاب عرض لمناهج التفسير بصفة عامة فى الصفحات الأولى ليمهد لمنهج التفسير الموضوعى [1] ، ثم شرع فى بيان مفهوم التفسير الموضوعى ، ونشأته ومنهجه ومنزلته بين المناهج الأخرى والفرق بينه وبين غيره وأهميته ومدى حاجة المثقف المسلم

---

(1) البداية فى التفسير الموضوعى : دراسة منهجية موضوعية من ص 1 - 40 .

إليه ، ثم عرض بعد ذلك لبعـــض المؤلفات التى نهجت هذا المنهج قديما ، مثل كتاب البيان فى أقسام القرآن لابن القيم الجوزية · وبعد عرض هذه الجوانب النظرية والتاريخية شرع فى التطبيق ، ومن أبرزنماذجه التطبيقية « رعاية اليتيم فى القرآن الكريم » [1] أو « أمية العرب » ·

وسنعرض بإيجاز شديد للقسم النظرى ، والقسم التطبيقى بما يقدم صورة كافية عن الكتاب لتوفره فى المكتبات ·

(أ) الجانب النظرى :

هذا الجانب عرض فيه للمفهوم فعرفه بقوله : « اسم التفسير الموضوعى - بحسب النوع الثانى - اصطلاح مستحدث أطلقه العلماء المعاصرون على : جمع الآيات القرآنية ذات الهدف الواحد - التى اشتركت فى موضوع ما - وترتيبها حسب النزول ما أمكن ذلك مع الوقوف على أسباب نزولها ، ثم تناولها بالشرح والبيان والتعليق والاستنباط وإفرادها بالدرس المنهجى الموضوعى الذى يبين الباحث معه الموضوع على حقيقته ويجعله يدرك هدفه بسهولة ويسر ويحيط به إحاطة تامة ، تمكنه من فهم أبعاده والذود عن حياضه » [2] ·

والتعريف بهذا الشكل يركز على الخطوات وبالقواعد المنهجية المعتبرة فى منهج التفسير الموضوعى أكثر من اعتماده على الخصائص الجوهرية له ، ومع أن التعريف قد ذكر بعد بيان نوعين من أنواع التفسير الموضوعى ، يهتم النوع الأول « بالكلام على السورة ككل مع بيان أغراضها العامة والخاصة وما فيها مع بيان ربط الموضوعات بعضها ببعض حتى تبدو السورة وهى فى منتهى الدقة والإحكام » ويهتـــم النوع الثانى « بجمع الآيات القرآنية التى فى موضوع واحد ووضعها تحت عنوان واحد وتفسيرها تفسيراً منهجيا موضوعيا » [3] ، أقول :مع ذلك فإن التعريف لم يك ليسع النوعين ، ولذلك وضع بين معترضتين عبارة « حسب النوع الثانى » ، ومعناه أن التعريف يشير

---

(1) البداية فى التفسير الموضوعى : دراسة منهجية موضوعية من ص 79 - 92 ·
(2) نفسه : ص 52 ·
(3) نفسه : ص 51 ·

إلى النوع الثانى من النوعين فقط ، وإنما فعل ذلك لأنه يرى أن « هذا النوع الثانى هو الذى يتبادر إلى الذهن عند إطلاق اسم التفسير الموضوعى » [1] .

فالتعريف إذن قد قصره صاحبه على نوع واحد عمدا ، ولهذا السبب جاء ناقصا ، لا يستجيب للتفسير الموضوعى بمفهومه الواسع والدقيق كما حددناه فى كتابنا « التفسر الموضوعى نظرية وتطبيقا » وقلنا إن « التفسير الموضوعى منهج مستحث لدراسة القرآن الكريم ، يستهدف سبر أغوار الموضوعات المختلفة لغرض الخروج بتصور ناضج حولها أو نظرية علمية فيها ، من خلال القرآن كله أو سورة فيه » .

وتعريف الفرماوى السابق يعد نموذجا حسنا لبيان خطوات المنهج ، ولكن مع ذلك فإن صاحبه لم يكتف به وإنما عرض للمنهج بعد ذلك ليبين الخطوات الأساسية التى يرى أنها تتمثل فى سبع نقاط هى : اختيار الموضوع وحصر الآيات المتعلقة به ، وترتيبها حسب النزول ، والتعرض لمناسبات الآيات ، وبناء الموضوع ثم تكميله بما ورد من حديث الرسول ﷺ ، وأخيراً دراسة هذه الآيات دراسة موضوعية يراعى فيها التجانس .

ويبدو أن الفرماوى لم يعن فى بيان خطوات المنهج مسألة فى غاية الأهمية وهى « الخروج بنظرية فى الموضوع » ، وهى الخطوة التى تميز تفسيرا سيأتى من بعد .

(ب) الجانب التطبيقى :

القسم التطبيقى من الكتاب يضم أربعة مباحث ، هى :

1 - رعاية اليتيم فى القرآن الكريم .

2 - أمية العرب فى القرآن الكريم .

3 - آداب الاستئذان فى القرآن الكريم .

4 - غض البصر وحفظ الفرج فى القرآن الكريم .

---

(1) نفسه : ص 52 .

وسنكتفى هنا بالإشارة للموضوع الأول لنبين منهج الفرماوى فى التطبيق ، ولنكشف عن علاقة النظرى بالتطبيقى فى كتابه .

حدد الفرماوى الموضوع تحديدًا دقيقا ، إذ بين إن الموضوع يعنى بمشكلة اجتماعية هى « رعاية اليتيم » ، وقد مهد للموضوع بمقدمة قصيرة جدًّا لكنها معبرة عن المتصد من اختياره للموضـــوع ، ثم قسم الموضوع باعتبار زمن النزول إلى قسمين :

تناول فى القسم الأول : العهد المكى ما ستعرض كل الآيات المتعلقة بالموضوع فى نظره ، ثم وزعها على عنصرين ، تناول فى الأول : الرعاية النفسية لليتيم ، وتناول فى الثانى : مال اليتيم ، ثم انتقل إلى العهد المدنى فبين أن آيات هذا العهد منها ما هو خاص بالأموال ومنها ما هو لرعاية اليتامى فى أنفسهم وأخلاقهم ، ومنها ما يدعو للعطف والإنفاق عليهم .

وأمام هذا التنوع فى الرعاية لم يـــجد المؤلف بُدًّا من التعرض لنقاط أساسية هى :

(**أولا**) عناية القرآن بتقوية أخلاق اليتامى وإحسان تربيتهم .

(**ثانيا**) عناية القرآن بالمحافظة على أموالهم .

(**ثالثا**) الأمر بالإنفاق عليهم .

وانتهى البحث فى رعاية اليتيم إلى خلاصة تبين أن هدف القرآن الكريم هو تكوين مجتمع فاضل قوى متكامل يخلو من الضغائن والظلم والاحتقار تغلق فيه كل سبل الفساد ،ولذلك يعمل على عدم عزل اليتيم عن المجتمع عزلا اجتماعيا أو نفسيا لما فى ذلك من دفعه له إلى طرق الفساد .

* * *

4 - تجربة باقر الصدر فى التفسير الموضوعى
قراءة فى كتاب : مقدمات فى التفسير الموضوعى
لمحمد باقر الصدر

- **وصف الكتاب** : الكتاب عبارة عن مجموعة من المحاضرات تضم أربعة عشر رسا طبعت سنة 1980 تناول فيها على الترتيب :

1- المدخل النظرى ويشمل :

- الفرق بين الاتجاه التجزيئى والتوحيدى ·
- التفاضل بين الاتجاه التجزيئى والاتجاه التوحيدى الموضوعى وخصص له محاضرتين ·

2 - السنن التاريخية من خلال القرآن وشمل دروسا هى :

(أ) السنن التاريخية إجمالا ·

(ب) نماذج من الآيات التى تعرض للسنن ·

(ج) الحقائق المستخلصة من الموضوعين السابقين فى السنن وهى :

ج 1 - الاضطراد ·

ج 2 - الربانية ·

ج 3 - إرادة الإنسان فيها واختياره لها ·

(د) مميزات السنن التاريخية :

د 1 - السنن التاريخية لها غاية ومستقبل ·

د 2 - العمل التاريخى تحكمه ثلاثة أبعاد :

- البعد السببى - قانون السببية ·

- **البعد الغائى - عمل له غاية ٠**

- **البعد الاجتماعى - لا الفردى ٠**

(هـ) الصيغ المتنوعة التى تتخذها السنة التاريخية للقرآن :

هـ 1 - شكل القضية الشرطية ٠

هـ 2 - شكل القضية الفعلية الناجزة ٠

هـ 3 - شكل القضية المصاغة على صورة اتجاه طبيعى فى حركة التاريخ لا على صورة قوانين صارخة ٠

3 - تحليل عناصر المجتمع الثلاثة : الإنسان + الأرض + العلاقة المعنوية التى تربط الإنسان بالأرض ٠

4 - بيان أن التاريخ يتحرك من خلال البناء الداخلى للإنسان ويشمل :

(أ) المثل الأعلى للمجتمع وهو الأساس فى التحريك ٠

(ب) المثل العليا المنخفضة ٠

(5) الله هو المثل الأعلى والهدف الأسمى لكدح الإنسان ٠

(6) العلاقة الاجتماعية بين الإنسان والطبيعة ← علاقة الإنسانبالإنسان ← علاقةالإنسان بالطبيعة

(7) التأثر والتأثير بين خطى العلاقات :

7 - 1 - تأثير خط علاقة الإنسان مع الطبيعة على خط علاقة الإنسان مع الإنسان ٠

7 - 2 - التأثير العكسى للعلاقة الأولى ٠

8 - الأساس النظرى للاتجاه العام للتشريع الإسـلامى وعلاقته بالخطين السابقين ٠

ونستطيع أن نلخص جهده فى موضوعات ثلاث هى :

(**أولا**) مفهوم التفسير الموضـــوعى والفرق بينه وبين التفسير التحليلى التجزيئى ·

(**ثانيا**) النموذج الأول للتفسير : السنن التاريخية ·

(**ثالثا**) تحليل عناصر المجتمع وعلاقة ذلك بالتشريع ·

❊ ❊ ❊

2 – نموذج من تفسير باقر الصدر
تنوع حالات السنن التاريخية

فى الدرس الرابع من دروس باقر الصدر ، نلتقى بحديث غير معنون ،ولكن مفاده يعيننا على أن نفهم أن موضوع حديثه هو عرض حالات من السنن التاريخية من خلال القرآن .

وقد استهل حديثه بمقدمة بيّن فيها أن الفكرة القرآنية عن سنن التاريخ بلورت فى عدد كثير من الآيات **بأشكال مختلفة** ، فهى تكون بصيغة كلية حينا ،وتطبيقية ثانية ، وتحث على الاستقراء للشاهد التاريخى ثالثة ، وهذا تفصيلها :

١ – شرع فى تفصيل هذه النماذج والأشكال ، فتحدث عن الآيات التى أعطيت فيها **الفكرة الكلية** ، فكرة أن التاريخ له سنن وضوابط ومنها قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1] وحلل الآية مبينا أن الأجل أضيف هنا إلى الأمة لا الفرد ، لأن الهدف هو التنبيه على أن الأمة تخضع كالفرد لقانون الحياة والموت ، غير أن موت الأمم وحياتها يخضع للصلات القائمة بين أفراد المجتمع ، وما يحكمها من أفكار ومبادىء مسندة بمجموعة من القابليات ويدعم ذلك بآية أخرى هى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾[2] ويستنتج منها أن الأجل المشار إليه هو الأجل الجماعى لأن قوما بمجموعهم لا يموتون عادة فى وقت واحد ، وإنما المقصود هو الوجود الكلى المعنوى هو المهدد بالموت فالمجموعة حالا ينظر إليها بوصفها وحدة متفاعلة فى ظلمها وعدلها ، حينئذ يكون لها أجل واحد ، ويفسر ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ، لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا

(1) الأعراف : 34 . (2) الحجر : 4 - 5 .

لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ، بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾[1] وقوله : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ [2] ، ويبنى على ذلك نتيجة هى أن الله لو كان يريد أن يؤاخذ الناس بظلمهم لأهلكهم جميعا ، لأن الإشارة هنا للإهلاك الدنيــوى الذى يقوم على قاعدة آية أخرى هى قوله : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [3] .

فهذه الآيات تتحدث عن سنن تاريخية وعلاقة ذلك بسعى الأمة وجهدها ، ويؤكد المعنى بقوله تعالى متحدثا عن تجربة الرسول ﷺ :

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ، وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ [4] .

فالمقصود هنا بقاءهم كجماعة معارضة للحق محال ، وهذا ما حدث حين فتحت مكة .

فالآية تتحدث عن سنة من سنن التاريخ فتقول : ﴿ وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ ويشرح تلك الآية بقولة تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [5] ليبين أن الآية وإن كانت قد جاءت لتثبيت قلب الرسول - ﷺ - فإنها قد بينت سنة حين تحدثت عن تجارب الأمم لتبين أن هذه التجارب تكشف عن قانون وسنة تجرى على الرسول - ﷺ - كما جرت على الأنبياء من قبله وتربط السنة بشروط هى الصبر والثبات واستكمال الشروط والأسباب .

فهناك كلمة لا تتبدل على مر التاريخ هذه الكلمة هى العلاقة القائمة بين النصر ومجموعة الشروط التى جمعت فى الآية .

---

(1) الكهف : 58 - 59 .
(2) فاطر : 45 .
(3) الأنفال : 25 .
(4) الإسراء : 76 - 77 .
(5) الأنعام : 34 .

2 - الآيات التى تناولت المحتوى الداخلى للإنسان :

وقد انطلق هنا من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (1) ليبين أن الآية تتحدث عن علاقة معينة بين القاعدة والبناء العلوى ، أي بين الوضع النفسى والروحى والفكرى وكل المحتوى الداخلى للإنسان وبين الوضع الاجتماعى ، فإذا تغير الداخل تغير الخارج ، ويستنتج من ذلك أن هذه سنة من سنن التاريخ ربطت القاعدة بالبناء العلوى ، ويؤكد ذلك بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (2) .

ومعناه أن التغيير نحو الخير ممكن ، ولكن لابد من معرفة سننه التاريخية .

3- العلاقة بين النبوة والمترفين :

ويتخذ منطلقه فيها من قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (3) ، ويبين منها أن العلاقة هنا قائمة بين النبوة على مر التاريخ ، وبين موقع المترفين والمسرفين فى الأمم والمجتمعات ، وهى تمثل سنة من سنن التاريخ ، وليست ظاهرة وقعت صدفة وإلا لما تكررت واطردت .

ويدعم ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (4) .

4 - علاقة الاستقامة بوفرة الخير :

ومنطلقه قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (5) .

---

(1) الرعد : 11 .
(2) الأنفال : 53 .
(3) سبأ : 34 - 35 .
(4) الإسراء : 16 - 17 .
(5) الأعراف : 96 .

الخلاصة :

ويصل فى نهاية المطاف إلى خلاصة تبلور المفهوم القرآنى الذى يؤكد أن الساحة التاريخية لها سنن ولها ضوابط كما يكون هناك سنن وضوابط لكل الساحات الكونية الأخرى ، والقرآن أول كتاب كشف عن هذا المفهوم ، وقد انتبه لذلك ابن خلدون وكشف سنن التاريخ من خلاله ثم بعد ذلك بأربعة قرون اتجه الفكر الأوروبى إلى ذلك .

تقييم ونقد :

هذه الدراسة التى قام بها محمد باقر الصدر فى كتابه « مقدمات فى التفسير الموضوعى » تُعد من أنضج التجارب التفسيرية فى مجالها خاصة فى مجال السنن التاريخية ، وهى فى الواقع عبارة عن محاضرات أُلقيت على طلبة كلية الشريعة ، ولكن ما يميزها بعد العمق هو طبيعة الموضوع الذى دُرس والطريقة المتبعة فى إنجاز هذه الدراسة ، فقد كان باقر الصدر فيها قادرا على التحليل العلمى المُنظم ، وقد ساعده على ذلك قدرته على فهم أعماق النصوص ومحاولة سبر أغوار الآيات القرآنية .

وربما كان القسم النظرى الذى خصص له المحاضرتين : الأولى والثانية ليُبين فيه تصوره لمفهوم التفسير الموضوعى ومنهجه أحد العوامل الأساسية التى ساعدت على إنجاز العمل التطبيقى بصورته الفذّة التى تجلت فى دراسة السنن الكونية .

على أن إجادته فى هذا البحث لا تخلو من بعض النقائص ذات الطابع المنهجى ، والتى ربما أوقعه فيها كون الكتاب عبارة عن محاضرات ، فقد كانت الدروس الأربعة عشر خالية من العناوين مما يصعب فهم موضوعها بدقة ، إذ هناك فرق بين أن نحدد نحن موضوع المحاضرة وبين أن يحدده المحاضر نفسه ، إذ أن ذلك ييسر فهم المقاصد التى يرمى إليها والأفكار التى يسعى لتحليلها ، أمّا خلو المحاضرة من العنوان فإنه يجعلنا نجد صعوبة فى تحديد الأفكار التى تتناولها المحاضرات .

ثم هناك مشكلة أخرى تعترضنا فى هذا الكتاب وهى خلوه من الفهرس ، وهذه المشكلة مترتبة عن المشكلة السابقة .

هذا ومع ذلك فإن الدراسة التى قام بها باقر الصدر فى هذا الكتاب تُعد بحق نموذجا فذًا لطلبة العلم فى مجال التفسير الموضوعى ·

نقول ذلك ونحن نعلم أن خلو الكتاب من المقدمة ، وخلوه من الخاتمة والإحالات وإهماله لوجهات نظر المفسرين من جهة وإهماله لشق هام فى التفسير الموضوعى وهو التفسير الكشفى الذى يُعنى بالوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم وسوره قد يؤثر على قيمة الكتاب بعض التأثير ، ولكنه لا ينتقص من كونه نموذجاً فى جانب هو جانب التفسير الموضوعى التجميعى ·

* * *

5 - قراءة فى كتاب : المدخل إلى التفسير الموضوعى للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد

(أولا) : وصف عام للكتاب :

هذا الكتاب كانت طبعته الأولى سنة (1986 م - 1406 هـ) ، وهذا يعنى أنه قد ألف فى الفترة التى بدأ التفسير الموضوعى يدخل مجال البحث بقوة فى المصطلح وفى المنهج ، بل ينتمى إلى الفترة التى شرع العلماء فيها يشتغلون فى هذا الحقل على المستوى النظرى والتطبيقي معا ·

وعلى هذا الأساس وجدنا الكتاب يمثل نموذجا مهما ، لأنه يعبر عن نضج المنهج واتضاح المصطلح واتضاح معالم التفسير التى تبين حدوده تماما ، وتفرق بينه وبين المناهج التفسيرية الأخرى ·

ومن أبرز ما يبين ذلك عنوان الكتاب ، إذ أسماه صاحبه « المدخل إلى التفسير الموضوعى » وهى تسمية توحى بالاعتناء بالمفهوم وخطوات المنهج وقواعده ، ثم تقديم نماذج للتفسير الموضوعى لتجسم المفهوم الذى يقدمه المؤلف ·

والمؤلف يبين فى مقدمة الكتاب أن له مع التفسير الموضوعى قصة مفادها أن بداية تدريسه لهذا التفسير كانت سنة (1400 هـ - 1980 م) وهى فترة لم يجد فيها أى مؤلف فى التنظير لهذا النوع من التفسير سوى بحث للدكتور أحمد الكومى بعنوان « التفسير الموضوعى فى القرآن الكريم » صدّره بمقدمة حدد فيها معالم هذا المنهج وكتاب للدكتور عبد الحى الفرماوى بعنوان · « البداية فى التفسير الموضوعى » سار فيه على طريقة الكومى [1] ، ومع أن كتاب باقر الصدر كان قد أُلِّفَ قبل هذه الفترة وطُبع فى السنة نفسها فإن الدكتور عبد الستار لم يذكره هنا ولعله لم يعثر عليه ، فيكون بذلك قد خسر الاستفادة من منهجية باقر الصدر ومن تحديده للمفهوم لا سيما ما يتعلق بالخروج بوحدة التصور أو بنظرية فى الموضوع المفسر ·

---

(1) عبد الستار فتح الله سعيد : المدخل إلى التفسير الموضوعى ص 6 - 8 ·

وقد قسم عبد الستار فتح الله كتابه إلى بابين ، أما الباب الأول : فكان دراسة نظرية تناول فيها مفهوم التفسير بصفة عامة باختصار شديد ثم خصص فصلا لحقائق التفسير الموضوعى وأصوله ، وقد احتوى الفصل سبعة مباحث درس فيها ، معنى التفسير الموضوعى وأنواعه ومناهجه ونشأته وتطوره وأسباب ذلك وأهمية هذا التفسير وفوائده ، وخطوات المنهج ثم تنبيهات عامة ومناقشة لبعض الشبهات حول المنهج ، وأما الباب الثانى : فقد خصصه لنماذج تطبيقية فى التفسير الموضوعى درس فيه خمس موضوعات هى على التوالى :

1 - الوحدانية والتوحيد فى القرآن الكريم ·

2 - المعية فى ضوء القرآن الكريم ·

3 - التبعية فى ضوء القرآن ·

4 - العلم والعلماء فى ضوء القرآن الكريم ·

5 - الآخرة ومشاهدها فى ضوء القرآن ·

وختم الكتاب بقائمة المصادر والمراجع ، ومن ثم فإن الكتاب يخلو من خاتمة تسجل ما توصل إليه الباحث من نتائج على اعتبار أن البحث يُعد تجربة جديدة من جهة ومستفيدة من تجربتين رائدتين من جهة ثانية ·

(ثانيا) تقييم ونقد :

يُعد الكتاب لبنة جديدة فى مجال التفسير الموضوعى ، ولكن هذه اللبنة كان من الممكن أن تكون أكثر نضجا ، ولو صاحبها التفت إلى لبنة أخرى كانت قد ظهرت طبعتها الأولى سنة 1980 وأعنى بذلك كتاب « مقــدمات فى التفســر الموضوعى للقرآن » للعلامة باقر الصدر ، خاصة وأن تجربة الصدر كانت ناضجة وعميقة سواء فى بيان المفاهيم أو فى التطبيقات كما سبق الذكر ·

وأحسب أن الدكتور عبد الستار فتح الله لو أضاف إلى تجربتى الكومى (1980) والفرماوى (1977) الاستفادة من تجربة الصدر فى كتابه السابق وتجربة محمد محمود حجازى المرسومة بالوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم ، لكان بحثه قد اتجه وجهة

أكثر عمقا وتنوعا ، لأن تجربة الصدر ستعمق المفهوم فى إطار المنــهج التجميعى خاصة ، وفى إطار المنهج الكشفى بصفة ما ٠

ولهذا السبب وجدنا كتابه يخلو من التطبيقات التى تجرى عند غيره على مستوى كشف الوحدة الموضوعية فى السورة ، كما وجدناه يخلو من الحديث عن المنهج الكشفى ، بل إنه حينما تحدث عن ما أسماه : التفسير الموضوعى الوسيط قال : هو الذى يختار فيه المفسر موضوعا يعرضه من خلال سورة واحدة أو من خلال مجموعة سور ، واقترح مثالا لذلك : العقيدة فى سورة الشورى [1] ، فبين بذلك أنه لم يضع فى الحسبان مسألة الوحدة الموضوعية للسورة تماما ، مع أن بحث موضوع فى سورة لا يمكن إلا من خلال المنهج الكشفى الذى يتميز بخطواته الخاصة التى تمليها الأهداف والمقاصد المتوخاة من التفسير الموضوعى الكشفى ، والتى تختلف عن خطوات وأهداف ومقاصد المنهج التجميعى ٠

ومع ذلك فإن الكتاب غنى بالنماذج التطبيقية التى قدمها بخطى وئيدة راعى فيها قواعد المنهج التجميعى بالصورة التى حددها فى القسم النظرى تحديدا دقيقا نلمسه فى كل موضوع تطبيقى قد ورد فى هذا الكتاب ٠

فهو مثلا حين عالج موضوع « المعية فى ضوء القرآن الكريم » [2] بدأ بالمعنى اللغوى لموضوع المعية وبيّن أن المعية أنواع قسمها إلى :

1 – **النوع الأول** : معية الله لعباده ، وتشمل المعية العامة للناس والمعية الخاصة بالرسل والصالحين ٠

2– **النوع الثانى** : معية العباد لله تعالى ومنع القرآن لها ٠

3 – **النوع الثالث** : معية الناس لما حولهم وأقسامهم ، ومنها المعية الدينية للرسل وطريقة إثبات القرآن لهذه المعية ، وتفصيل القرآن للمعية المحمدية ٠

وختم بحثه بتقييد النتائج التالية :

1 – القرآن يقرر أن الرسل يحثون الناس على أمرين : الإيمان والمعية ٠

---

(1) المدخل إلى التفسير الموضوعى : ص 26 ٠

(2) نفسه : ص 127 ٠

2- الجماعة المؤمنة تكون مع الرسول من أول الدعوة بلا نظر إلى عددها .

3- القرآن يؤكد معية المؤمنين لمحمد ﷺ ليكون نموذجا للتعليم .

4- مهمة الأمة الجديدة هى إقامة المجتمع الصالح .

5- قد يأتى الرسول حاكما فتكون الأمة كلها بمعيته .

6- قيام الجماعة المسلمة فريضة الأمة [1] .

* * *

---

(1) نفسه : ص 155 .

6 - تجربة حكمت على حسين الخفاجي في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

إن مخطوط التفسير الموضوعى للقرآن الكريم بحث تقدم به الطالب حكمت على حسين الخفاجى إلى كلية العلوم الإسلامية - جامعة بغداد - كجزء من متطلبات درجة الماجستير فى أصول الدين سنة 1992 وسنقوم بدراستها كتجربة من تجارب البحث العلمى الأكاديمى فى التفسير الموضوعى فى القرآن ·

وسنبدأ أولا بعرض إجمالى لمحتوى الرسالة ثم ندرس خطتها ومنهجية صاحبها ثم نصل فى النهاية إلى التقييم العام للبحث ، ولا شك أن الدراسة - بصفة عامة - ستتخللها إشارات نقدية ·

الرسالة افتتحت بآية من القرآن الكريم هى الآية (13) من سورة الحديد ، ثم فى الصفحة الموالية إهداء إلى الوالدين والزوجة ، ثم خصصت صفحة للشكر والتقدير لكل من أسدى يد العون ، ويأتى ما أسماه المحتوى أو ما نسميه الفهرس ، ومن خلاله يتبين أن الرسالة تحتوى على (214) صفحة مقسمة على المقدمة والتمهيد وأربعة فصول وخاتمة تتبعها قائمة المصادر والمراجع وملخص الرسالة باللغة الانجليزية ·

أما المقدمة فقد استهلها بالحمد والثناء ، وأسباب اهتمامه بهذا الموضوع وأهمية الموضوع ومنهجه فى البحث ثم ملخص يقدم فيه مادة بحثه فى الفصول الأربعة التى قدم لها بتمهيد ·

أما التمهيد فقد تناوله تحت عناوين :

1 - نظرة عامة فى علم التفسير ·

2 - التفسير الموضوعى ·

فى النقطة الأولى عرَّف التفسير لغة واصطلاحا وناقش بعض التعريفات ثم

انتقل إلى اتجاهات التفسير ، وفى النقطة الثانية تعرض لأنواع التفسير الموضوعى وهى ثلاثة عنده لم يضع لأى منها عنوانا وإنما وصفها وصفا عاما ٠

النوع الأول منها : هو الذى نظر إلى القرآن نظرة شاملة ومثاله لذلك تفسير الطوسى (ت 460 هـ) ٠

النوع الثانى : هو الذى جمع الآيات ذات المعنى الواحد وجعلها تحت عنوان واحد وفسرها تفسيرا منهجيا واحدا ، هذا النوع لم يتعرض له أحد من المفسرين القدامى فى رأيه وهو أحق باسم التفسير الموضوعى ٠

أما النوع الثالث : فهو الكلام على استخلاص مضمون القرآن الكريم فى نظرة موضوعية شاملة لاستجلاء ما يتضمنه من أنواع الهداية الإلٓهية ويرى أن هذا النوع لم يلق العناية لا من القدماء ولا من المحدثين ، ويبدو لى أنه لم يطلع على بعض الدراسات التى اهتمت بالتفسير من هذه الجهة ، ويكفى دراسة كتاب المحاور الخمسة للشيخ الغزالى ٠

ينتقل بعد ذلك إلي تعريف التفسير الموضوعي مستعرضا تعريف أمين الخولي ومحمد شلتوت ومحمد محمود حجازى ومحمد حسين الصغير وهو أستاذه المشرف ، ثم ينتقدها باعتبارها لم تكن جامعة مانعـة وأنها تُعد بيانا للمنهج أكثر منها بيانا للمفهوم ، وقد أصاب فى نقده لأن الفرق بين الحديث عن المنهج والحديث عن المفهوم هو فرق واضح ، ينبغى ألا يختلط الأمر فيه لدى أى باحث أو دارس لأى علم من العلوم ، فالتعريف شىء والخطوات المتبعة والتقنيات المستعملة والقواعد المعتمدة فى إنجاز البحث شىء آخر ، وعلى هذا الأساس فقد عرَّفه بقوله : (هو معرفة أحوال مجموعة من الآيات القرآنية فى موضوع محدد مرتبة على حسب النزول تارة ، وغير مرتبة تارة أخرى من حيث دلالتها على مراد الله تعالى لتيسير فهمه إلى المتلقى فى كيان واحد وهيئة تركيبية متجانسة لا يفصل بينها فاصل ، فيصب ذلك فى بحث مستقل يكون موضوعه ما فى الآيات من موضوع) ٠

والحق أن الباحث إن كان قد أصاب فى نقده للتعريفات السابقة لاعتماده على خطوات المنهج ، إلا أنه لم يستطع أن يقدم بديلا ، وإنما قال كلاما غير مفهوم وغير

منضبط ، بل كان يخلو تماما من خصائص التعريف التى يأتى على رأسها الوضوح والبيان والدقة والاختصار ، وربما لو عرِّف كما يلى لكان أوضح :

« التفسير الموضوعى منهج مستحدث فى تفسير القرآن يوظف لسبر أغوار الموضوع من خلال القرآن كله أو سورة منه للخروج بتصور حوله أو نظرية فيه » ، ذلك لأن هذا التعريف أشمل وأدق كـما بينا فى كتابنا « التفســـير الموضوعى نظرية وتطبيقا » .

ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن آراء العلماء فى حداثة التفسير الموضوعى مبينا أن اختلافهم أدى إلى بروز اتجاهين ، وفى الحقيقة لا يبرز بمثل هذه الأمور اتجاهات وإنما تتعين مواقف ، فدعنا إذن نقول : الموقف الأول يرى أصحابه أن التفسير الموضوعى منهج جديد يجب الأخذ به ، ويمثل هذا الرأى أمين الخولى ، أما الموقف الثانى فيمثله محمد حسين الذهبى الذى ذهب إلى أن التفسير الموضوعى قديم وله مؤلفاته الخاصة به ، وأن القدماء أفردوا له مؤلفات مثل : أقسام القرآن لابن قيم الجوزية - مجاز القرآن لأبى عبيدة - مفردات القرآن للرازى الأصفهانى - الناسخ والنسوخ لأبى جعفر النحاس - أسباب النزول لأبى الحسن الواحدى ، وأحكام القرآن للجصاص .

ويأتى فى خاتمة بيان هذين الموقفين ما أسماه : الرأى المختار ، ليكشف أن التفسير الموضوعى لم يكن معروفا عند القدماء بمصطلحه العلمى ، ولكن لم تكن مؤلفاتهم خالية منه ، فالذى ساعد على بروز هذا المنهج هو تلك الإرهاصات القديمة التى تمخض عنها احتلال التفسير الموضوعى مكانتها ، والإرهاصات عنده بدأت منذ مجيىء الرسول ﷺ ونزوع الصحابة إلى تفسير القرآن بالقرآن وآراء العلماء فى مسألة تناسب الآيات ، ثم ظهرت فكرة الوحدة الموضوعية داخل السورة ،والوحدة الموضوعية للموضوعات القرآنية ، واكتمال البحث فى التفسير التسلسلى ، هذه هى الإرهاصات فى رأيه التى أدت إلى ظهور التفسير الموضوعى ، ويبدو لى أن الباحث لم يضع يده على أهم الإرهاصات عند القدماء ، وأعنى تلك التى صاغها صياغة علمية دقيقة عبقرى شاطبة « الشاطبى » فى كتابه الموافقات ، الذى قدم ملاحظات كانت سابقة لأوانها ، وربما لم نر بعدُ صياغة فى موضوعها أوثق منها وأدق وأحكم

وأدل على المراد ، إضافة إلى إهمال تام لكتاب يعد من أفضل التفاسير المتعلقة بمسألة الوحدة الموضوعية ، أعنى تفسير « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » للبقاعى ، وقد سبق الحديث عنه .

بعد ذلك انتقل الباحث إلى نقطـــة أخرى ، عالج فيها تقويم التفسير الموضوعى ، وأردفها بأخرى عالج فيها الفرق بين التفسير التسلسلى والتفسير الموضوعى ، والغريب أن « باقر الصدر » كان قد سبق إلى تعريف التفسير الموضوعى تعريفا جيدا ، كما سبق إلى التفرقة بين التفسير التسلسلى والتفسير الموضوعى ، ولكن الباحث قد تجاهل ذلك وأظن أن سبب التجاهل يعود إلى التعصب المذهبى الذى كثيرا ما يجنى على البحث العلمى .

هذا بالنسبة للفصل التمهيدى ، أما الفصل الأول فعنوانه « معانى التفسير الموضوعى عند القدماء والمحدثين » والذى تناول فيه أربع نقاط هى :

1 - التفسير الموضوعى عند القدماء ويشمل : فقه القرآن ، وأمثال القرآن ، وجدل القرآن ، وأقسام القرآن .

2 - التفسير الموضوعى عند المحدثين من العرب ويشمل : الدعوى أو التنظير والتطبيق .

3 - أعلام المستشرقين والتفسير الموضوعى .

4 - الفهرسة الموضوعية عند المحدثين ويشمل المستشرقين والعرب المحدثين .

وفى الفصل الثانى الذى عنوانه : موارد التفسير الموضوعى ، تناول القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والصحابة والتابعين واللغة .

ولا شك أن عنوانه هذا غامض وغير دال ، بل وغير مطابق للعناوين الجزئية التى ذكرها ، وسبب غموضه يعود إلى تجنبه المصطلح الدال وهو : مصادر التفسير ، وما كلمة موارد إلا كلمة عامة ، نعم هى مرادفة للمصدر ، ولكن ما كل ما يرادف الكلمة يمكن أن يكون دليلا للمصطلح ، ثم إن الباحث قد أهمل مصدراً من أهم مصادر التفسير الموضوعى وهو : « التفاسير العامة » .

الفصل الثالث عنوانه : الخصائص المميزة للتفسير الموضوعى :

وقد ذكر من الخصائص :

1 - تشكيل البنية الفكرية والفنية للقصة القرآنية ·

2 - بيان أن التفسير الموضوعى يشكل معرفة تراكمية ·

3 - أنه يجمع بين مصادر التفسير جمعا مؤتلفا ·

4 - التفسير الموضوعى تفسير دلالى متميز ·

5 - يبرز أسلوب القرآن فى تدرج الأحكام ·

6 - يضيق الخلاف فى مسألة الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم ·

7 - يقدم أطروحات متكاملة ·

8 - يبحث مسألة الموضوع الواحد فى القرآن الكريم ·

9 - يكشف البعد الإنسانى للموضوع القرآنى ·

10 - هو أطوع للعمل الجماعى منه إلى الفردى ·

الفصل الرابع عنوانه : تطبيقات التفسير الموضوعي ، وقد عالج فيه العناوين التى ذكرها فى التفسير الموضوعى عند القدماء وهى : فقه القرآن ، وأمثال القرآن ، وجدل القرآن ، وأقسام القرآن ·

ومعناه أن الباحث قد وقع فى التكرار من جهة ، وأخطأ فى أنه قد اعتمد هذه التطبيقات ، فى حين أنه من الناحية المنهجية لا يمكن أن تكون هناك تطبيقات إلا بعد بيان ملامح النظرية للمفاهيم وقواعد المنهج ، إذ كيف نطبق شيئا لا نظرية له ؟ ·

وقد سبق للباحث نفسه أن عدَّ هذه إرهاصات ،وكونها إرهاصات أمر سليم ولكن أن تتحول الإرهاصات إلى تطبيقات في التفسير الموضوعي فذلك أمر غير مستصاغ منهجيا ·

وإن الذى يتطابق مع العنوان هو أن يأخذ دراسات المحدثين الذين طبقوا المنهج بعد التنظير له وبعد تعريف المفهوم وتحديد المصطلح ، لا سيما وقد رأيناه يعتمد كثيرا من البحوث التى تصلح نماذج للتطبيق نذكر منها :

- الوحدة الموضوعية للقرآن لمحمد حجازى ·
- الوحدة الموضوعية لسورة يوسف لباجودة حسن محمد ·
- التفسير العلمي للآيات الكونية فى القرآن لأحمد حنفى ·
- مفاهيم القرآن فى العقيدة والسلوك لمحمد البهي ·
- الفن القصصى للقرآن لمحمد أحمد خلف الله ·
- جدلية القرآن لخليل أحمد خليل ·
- الدستور القرآني فى شؤون الحياة لمحمد عزت دروزة ·
- الطبيعة فى القرآن للزبيدي ·
- الصورة الفنية فى المثل القرآني لمحمد حسين على الصغير ·
- البداية فى التفسير الموضوعي لعبد الحى الفرماوي ·
- التفسير الموضوعي للقرآن لأحمد السيد الكومي ·

وهذه كلها من المصادر التى اعتمدها فى البحث ، فكيف أهملها فى التطبيقات ، ولجأ إلى الإرهاصات واعتمدها نماذج لتطبيقات التفسير الموضوعي ؟ ·

وقد درس فى قسم فقه القرآن : أحكام القرآن للجصاص ، وكنز العرفان للسيوطي ، وروائع البيان للصابوني ، وهى مؤلفات فى أحكام القرآن تتناول موضوعات مختلفة لغرض الأحكام ،وليست لغرض بيان حدود موضوع للخروج بتصور أو نظرية حول موضوع ما ·

إن الأحكام عمل الفقهاء ، وغرضه بيان الحلال والحرام ، وإن التفسير الموضوعي عمل المفسرين الذين ينظرون إلى مشكلات الحياة من خلال الآيات القرآنية ليعرفوا كيف يتصورون المشكلات تصورا مضبوطا بالنصوص من القرآن والسنة ، وهذا يعنى أن المنهجين مختلفين لاختلاف المقاصد من كل دراسة على حده ·

وتحت عنوان « أمثال القرآن » عالج الأمثال فى الكتاب والسنة للترمذي والأمثال فى القرآن لجابر الفياض ، وهذا الأخير وإن كان من المحدثين فإنه لم يعالج الأمثال فى ضوء مفهوم التفسير الموضوعي وإنما عالجها فى ضوء الدراسات العامة لقضايا القرآن ·

وتحت عنوان « جدل القرآن » تناول جدل القرآن للحنبلي ، ومناهج الجدل للدكتور زاهر ، ولا شك أن مناهج الجدل لزاهر قد عولج فى ضوء الدراسات العامة أيضا ·

وتحت عنوان « أقسام القرآن » تناول التبيان لأحـــكام القرآن لابن القيم الجوزية ·

ولا شك أن هذه العناوين الأخيرة قد تناول فيها بعض الدراسات كنماذج للتطبيقات مثل : الأمثال فى القرآن لجابر الفياض ومثل مناهج الجدل للدكتور زاهر ، ولا شك أنها من دراسات المحدثين ولكن عولجت فى ضوء الدراسات العامة ولم تعالج فى ضوء مفهوم التفسير الموضوعي ومنهجه ·

تحليل الخاتمة : أما الخاتمة فقد سجـــــل فيها النتائج التى يزعم أنه قد توصل إليها ، لكنه يصرح أنه لم يستطع أن يحقق النتائج المرجوة ، ويرجع السبب إلى ما يتسم به - فيما يزعم - بحثه من جدة ، وقد سجل ثمان وعشرين نتيجة هى فى الحقيقة عبارة عن تلخيص للبحث فى نقاط توهم بأنها نتائج ، ومن هذه :

1 - لم يكن يأخذ التفسير الموضوعى شكلا واحدا بل ثلاثة أشكال :

- **أولها** : ما عنى بتفسير القرآن الكريم تفسيرا تسلسليا ، لكنه نظر إلى السورة نظرة إحاطة وشمول مع بيان أغراضه الخاصة والعامة ، وربط الموضوعات ببعضها على الرغم من تعددها وتباين مناسبات نزولها ·

- **أما الثانى** : فإنه عنى بجمع الآيات القرآنية ذات المعنى الواحد وجعلها تحت عنوان واحد ، وفسرها تفسيرا منهجيا موضوعيا ·

- **أما الثالث** : فقد عنى باستخلاص مضمون القرآن الكريم فى نظرة موضوعية شاملة لاستجداء مايتضمنه من أنواع الهداية الإلّهية ، فهو إذن منهج متعدد الصور ومتنوع الأشكال أغنته جهود السلف الصالح من العلماء ·

2 - قد جلى البحث الشكل الثامن وعده أنسب ما يطلق عليه التفسير الموضوعي ·

3 - اختلف الباحثون فى تعريف التفسير الموضوعي ·

4 - توزعت آراء العلماء فى حداثة التفسير الموضوعي ·

5 - توصل البحث إلى أن أصول التفسير الموضوعي تمثلت عند القدماء فى :
فقه القرآن - أمثال القرآن - جدل القرآن وأقسام القرآن ·

6 - وقفة عند تقويم العلماء للتفسير الموضوعي ·

7 - بيان الفرق بين التفسير التسلسلى والتفسير الموضوعي ·

8 - مجالاته تتمثل فى الدعوة إليه والتبشير بأهميته ·

9 - مدار دراسات المحدثين ترتكز فى الموضوعات التى تهم الإنسان المعاصر ·

10 - بيان أن دراسات المستشرقين ليست من التفسير الموضوعي ·

11 - كان فضل السبق فى وضع الفهرسة الموضوعية للقرآن للمستشرقين ثم تبعهم العرب ·

12 - موارد التفسير الموضوعى ما هى إلا موارد تفسير القرآن للقرآن نفسها ·

13 - أول تلك الموارد هى القرآن ·

14 - تمثل السنة النبوية موردًا ثانيا ·

15 - اجتهاد الصحابة مصدر من مصادر التفسير ·

16 - تناول البحث أهل مدارس الصحابة التفسيرية إذا جاز لنا تسميتها ·

17 - تبين أنه لابد للمفسر على الطريقة الموضوعية أن يرجع إلى أقواله ويستفيد منها فى جميع الآيات ·

18 - كانت اللغة موردًا من موارد التفسير الموضوعي ·

19 - التفسير الموضوعي يشكل البنية الفكرية والفنية للقصة القرآنية ·

20 - يسعفنا التفسير الموضوعى فى تحديد أسلوب فى معالجة القصص القرآني عرضا ونقدا، وهذا الأسلوب هو التسلسل الطبيعي للحدث الذى تزيد آياته عن العشر أو أكثر، وذلك التسلسل هو أنه بعد درج الآيات الخاصة بالموضوع الواحد نتبعها بعملية نثر تلك الآيات على غير ما هو موجود فى القرآن الكريم ، ولكن بالألفاظ نفسها

لتشكل قطعة نثرية يستطيع دارس القصة أن يضعها أمامه ويكون له تصور كامل عن ذلك الحدث ·

21 - أفاد التفسير الموضوعى من التراكم فى المعرفة والمنهج فى العملية التفسيرية إذ أنه لم يأت من فراغ ·

22 - يستطيع التفسير الموضوعي أن يجمع بين التفسير العقلي والنقلي ·

23 - توصلنا إلى أن التفسير الموضوعي تفسير دلالي متميز إذ أنه يضم المجمل إلى المفصل والمطلق إلى المقيد والعام إلى الخاص حيث إن التفسير التسلسلي لا يستطيع أن يبرز لنا هذه العملية ·

24 - تدرج الأحكام فى أســلوبه التربوى التوجيهي ومنهجية القرآن في التبليغ ·

25 - التفسير الموضوعي يقدم أطروحات معاصرة ومتكاملة لمنظومة من مشكلات الحياة الإنسانية ·

26 - يرد التفسير الموضوعي على تخرصات بعض المستشرقين من أن القرآن الكريم تكرار لا داعى له ·

27 - في الحياة المعاصرة أخذت تيارات عدة تتجاذب المسلم العادي ·

28 - أن التفسير الموضوعي أطوع فى العمل الجماعي منه فى العمل الفردي ·

(ثانيا) نقد وتقييم :

يمكن الآن بعد هذا العرض الموجز أن نقيم هذا البحث على ثلاث مستويات :

أولا : الخطة والبناء :

البحث يحتوي على مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة ، تحاول أن تجيب على إشكالية عنوانها : « التفسير الموضوعي للقرآن الكريم » ·

وإذا كانت المقدمة هى عبارة عن عرض لجزئيات الخطة وما إلى ذلك ، وكنا في غنى عن وضع عنوان لها ، فإن التمهيد الذى وضعه بدون عنوان ،وتناول فيه مسألتين الأولى بعنوان : نظرة عامة فى علم التفسير ، والثانية بعنوان : التفسير الموضوعي ،

يحتاج بالضرورة إلى عنوان ، والعنوان الصالح له هو مفهوما التفسير والتفسير الموضوعي ، وكان الفصل الأول قد تناول معالم التفسير الموضوعي عند القدماء والمحدثين وقد تناول مسألتين أيضا ، الأولى :بعنوان التفسير الموضوعي عند القدماء ، والثانية : بعنوان التفسير الموضوعي عند المحدثين ، ولكنه حينما عاد إلى الفصل الرابع - وعنوانه - تطبيقات التفسير الموضوعي - قد طبق على النماذج الأربعة التى عرضها كاملة للتفسير الموضوعي عند القدماء ، ومعنى ذلك أنه قد فصّل ما أجمله فى الفصل الأول ، وفى ذلك تكرار من جهة ، وسوء تنظيم من جهة ثانية ، إذ أن تفصيل ما ورد بخصوص القدماء ينبغى - منهـــجيا - أن يقابله تفصيل فى فصل خاص للمحدثين ، كما فعَل فى الفصل الرابع لدى القدماء ؛ أى لابد من فصل خامس عنوانه (تطبيقات التفسير الموضوعي عند المحدثين) ، وإذا كان الباحث قد أورد ضمن نموذج فقه القـــرآن « تفسير آيات الأحكام للصابونى » وأورد ضمن أمثال القرآن « الأمثال فى القرآن الكريم للدكتور جابر الفياض » وأورد ضمن جدل القرآن « مناهج الجدل فى القرآن الكريم للدكتور زاهر » ، فإن ذلك لا يعني أنه قد غطى تطبيقات التفسير الموضوعي عند المحدثين ، وهو نفسه يذكر فى الخاتمة فى النتيجة الخامسة والعشرين أن التفسير الموضوعي يقدم أطروحات معاصرة ومتكاملة لمنظومة من مشكلات الحياة الإنسانية ، وقد أشرنا إلى الكتب التى تصلح نماذج للتفسير الموضوعي فى جانبه التطبيقى .

أما الفصل الثانى الذى عنوانه موارد التفسير الموضوعي فقد تناول فيه أربعة مصادر أساسية للتفسير ، وقد أخطأ فى استخدام المصطلح - وقد أشرنا إلى ذلك - كما أهمل أهم مصدر من مصادر التفسير الموضوعي وهو التفسير التحليلي ، وأهمل مصدرا آخر وهو جهود الفقهاء .

ثانيا : المنهج وتقنيات البحث :

المنهج المعتمد في هذه الدراسة هو منهج يجمع بين المنهج التاريخي والمنهج الاستقرائي التحليلي ، ولكن الباحث لم يحسن استخدامهما ، ربما لنقص الوعي بأصول كل منهج على حده ، ولم يبين فى أي موضع من مواضع البحث يصلح هذا أو ذاك .

هذا بالنسبة للمنهج ، أما المنهجية وتقنيات البحث فيمكن أن نلاحظ ما يلي :

(أ) **الإحالات** : طريقته فى الإحالات جيدة وعلمية إذ يذكر اسم الكاتب ثم الكتاب ثم الجزء أو المجلد ثم الصفحة ، ومن الملاحظ أنه لم يقع في أى خلط يمكن أن يؤاخذ عليه إلاّ في موضع أو موضعين سقط فيهما رقم الصفحة ، بل إنه أحيانا يحيل على أكثر من مرجع لنص واحد .

(ب) **النصوص** : يضعها دائما بين علامتى التنصيص« » وضعا سليما ويضع الإحالة دائما بعد نهاية علامة التنصيص .

(ج) **الآيات** : أجاد حين كتبها بخط متميز وشكلها لتقرأ قراءة صحيحة ، ولكنه لم يميز أقواسها عن علامة التنصيص التى يميز بها النصوص الوضعية .

(د) **علامات الترقيم** : يخلط بينها خلطا كبيرا ، فيضع في موضع الفاصلة فاصلة منقوطة وفى موضع هذه الأخيرة نقطة وأحيانا يكتب فقرة كاملة تخلو من الفواصل والنقط إلى غير ذلك ، وقد تسبب ذلك فى إفساد معاني العبارات إذ أن معرفة الفصل من الوصل هي البلاغة كما يقول الجاحظ ، ومعنى ذلك أن إهمالها إهمال لبلاغة النص وسنرى في نص لاحق أثر ذلك .

ثالثا : الأخطاء العلمية واللغوية :

إن البحث يتخلله كثير جدًّا من الأخطاء اللغوية التي تفسد التراكيب وتخرجها عن المعنى المقصود ؛ كما فى قوله : « بعد أن أتممت بتوفيق الله فصول الرسالة لنا أن نستخلص أهم ما توصلنا إليه من نتائج موزعة على تلك الفصول التي كانت استخلاصا من جهد كنت أقدر منذ البدء أنه سيكون صعبا وشاقا لما يتسم به موضوع بحثي من جدة نابعة كونه لم يدرس دراسة متعمقة ومتوفرة عليه فقط نستقرأ من أصوله الأولى وهذا ربما عرضناه فى التمهيد » [1] .

فهذا كلام مضطرب قد أفسد علينا عملية الفهم والتذوق وقطع علينا حبل التواصل بيننا وبين ما نقرأ ، والسبب فى ذلك أن الفكرة التى يريد الباحث أن يعبر

---

(1) ص 191 .

عنها ربما كانت غير واضحة أساسا فى ذهنه ، وهناك سبب آخر وهو وضع علامات الترقيم في غير موضعها وخلو النص من الروابط التى تربط بين أجزاء هذا الكلام ربطا سليما ، وقد سبق الحديث عن ذلك ٠

ويمكن أن نسوق مثالا آخر من الصفحة نفسها وهو النص الذى أشرنا إليه في عرض السائج والذي يمثل النتيجة الأولى بدءًا من قوله : « لم يكن يأخذ ٠٠ الصالح من العلماء » ٠

ففى هذا النص أخطاء علمية وأخطاء لغوية ، ومن بين العلمية التعبير غير المبين عن المراد بحيث يحدثنا عن شيء وهو بصدد كتابة الخاتمة ، ولا يستطيع أن يعبر عنه بمصطلحه ٠

فالفقرة كلها يمكن تلخيصها فيما يلي :

لم يأخذ التفسير الموضوعي شكلا واحدا وإنما أخذ أشكالا ثلاثة هي : التفسير التجميعي والتفسير الكشفي والتفسير الموضوعي الشامل ، وهذا الأخير لم يمارس من أحد إلى الآن فهو مجرد تصور نظري ٠

كما نلاحظ أنه يستخدم المصطلحات استخداما فيه شيء من التعسف كاستخدام الموارد فى موضع المصادر واستخدام التفسير التسلسلى بدل التفسير التحليلى ، وكأني به لا يعرف أن المصطلح قد وضع للدلالة على جملة كبيرة من المسائل يختصرها ويختزلها من جهة ، ومن جهة أخرى فإن المصطلح هو ما اصطلح الناس عليه تيسيرا للتواصل المعرفي فهو أدخل في المعرفة العلمية ، ومعنى ذلك أنه يختلف عن الكلمة المجردة التي نستخدمها بصفة عادية فى الكتابات الإنشائية ٠

* * *

7 – قراءة في كتاب : مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم وتجربة مصطفى مسلم في كتابه « مباحث فى التفسير الموضوعي »

ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى بدمشق سنة 1989 م ، وهو كتاب يتناول التفسير الموضوعي من جانبيه النظري والتطبيقي ، وقد راعى فيه مؤلفه قواعد البحث العلمي ، لولا أنه لم يعن بالتبويب ، وإنما قد اكتفى بالمقدمة التي يتلوها تمهيد عرض فيه إلى تعريف التفسير الموضوعي ونشأته وتطوره وألوانه وأهميته وعلاقته بعلم المناسبات .

أما تعريفه فقد اعتمد فيه على مجموعة من التعريفات لم ينسبها لأصحابها – مع الأسف – ورجح تعريف الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد الذي ذهب فيه إلى أن التفسير الموضوعي علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنى أو غاية عن طريق جمع آياتها المتفرقة والنظر فيها على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة لبيان معناها واستخراج عناصرها وربطها برباط جامع [1] .

ومن الواضح أن التعريف الذي رجحه لم يذكر أهم عنصر فى التفسير الموضوعي ، وهو الخروج بنظرية أو تصور في الموضوع ، على الرغم من أن الباحث في هذا الكتاب قد عرض لتعريف باقر الصدر الذي يتميز بالإشارة إلى هذا الجانب .

هذا وقد تعرض لنشأة التفسير الموضوعي مبينا أنه قد نشأ كعمل منذ القديم حين جمع الفقهاء الآيات ذات الصلة الواحدة بموضوع معين واستنـبطوا منها الأحكام الخاصة [2] .

---

(1) مباحث فى التفسير الموضوعى : ص 16 : أنظر المدخل إلى التفسير الموضوعى : ص 20 .

(2) نفسه : ص 19 .

وقد قسم مناهج البحث فى التفسير الموضوعي إلى قسمين :

1 - منهج البحث فى تفسير موضوع من خلال القرآن الكريم كله ، وأهم قواعده (اختيار عنوان الموضوع - جمع الآيات المتعلقة به - ترتيب هذه الآيات حسب النزول - تفسير هذه الآيات بالرجوع إلى كتب التفسير - استنباط العناصر الأساسية للموضوع - العودة إلى طريقة التفسير الإجمالى في عرض الأفكار مع استهداف الهدايات القرآنية) .

2 - منهج البحث في التفسير الموضوعي لسورة واحدة ، وأهم قواعده (معرفة أسباب النزول - التعرف على الهدف الأساسي للسورة - تقسيم السورة إلى مقاطع - ربط هذه المقاطع ببعضها من جهة وربطها بالهدف الأساسى للسورة من جهة ثانية) .

وهذان المنهجان هما اللذان سيعمد الباحث إلى إجراء تطبيقات عليهما في القسم الثاني من الكتاب ، وذلك بعد التعرض لمفهوم علم المناسبات وعلاقته بالتفسير الموضوعي .

وقد تم تطبيق المنهجين على موضوعين الأول بعنوان « الألوهية من خلال آيات القرآن الكريم » ، وقد تناول فيه - بعد مقدمات بين يدى الموضوع - الألوهية والفطرة ومسألة التوحيد وبيان أن التوحيد منهج فطرى وربط العقيدة بالمصالح وقد ختم دراسته بخاتمة لخص فيها أهم الأفكار المتعلقة بموضوع الألوهية على أن تلخيصه لم يكن موفقا في نظرى على الأقل .

والثانى بعنوان « القيم فى ضوء سورة الكهف » .

أو (فصل تفسير سورة الكهف تفسيرا موضوعيا)

إن العنوان الذى وضعه للسورة هو « القيم فى ضوء سورة الكهف » ومبرره لاختيار هذا العنوان هو أن « من أدرك الحقائق التي وردت فى سورة الكهف ملك الميزان الذي يفرق به بين الصحيح والسقيم والحق والباطل » [1] . ونحن لا نستطيع

---

(1) ص 186 .

الآن أن نحكم على مطابقة العنوان لموضوع السورة ، ولكن ما يبدو لنا هو أن موضوع السورة هو الذكر ، وهو ما يفهم من مطلع السورة وهو ﴿ الْحَمْدُ لله الَّذى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِه الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَات أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ﴾[1] ، ذلك لأن مطالع السور في الغالب هى التي تملك القدرة على تحديد وجهة الموضوع ،وسيتبين لنا ذلك لاحقا .

أهداف السورة : من الأهداف الأساسية للسورة صدق رسول الله - ﷺ - فى دعوته ، والميزان المذكور فى رأي الباحث هو الفيصل في التعريف على هذا الصدق [2] .

مقاطع السورة :

مقاطعها في نظره تمثل القصص الأربع إلى جانب الافتتاحية والخاتمة .

أولا : أما الافتتاحية فتتضمن القيم الصحيحة التي توزن بها الأمور : (186)

وتبدأ الافتتاحية من الآية (1 - 8) وتتضمن الحقائق الأساسية التي ينبغي وضعها نصب الأعين وهذه الحقائق هي :

١ - الثناء على الله .

٢ - بيان مزايا كتاب الله المتمثلة في كونه وحيا ومستقيما لاعوج فيه .

٣ - نزوله على الرسول المختار من البشر .

٤ - المسؤولية والحساب والأجر .

٥ - القيم الثابتة مبنية على العلم الذي طبيعته الوحى .

٦ - الهدف من زينة الحياة الدنيا هو الابتلاء (ص 191 - 196) .

---

(1) الكهف : 1 - 4 .　　　(2) ص 186 .

ثانيا : أما المقاطع : وهي تفصيل لهذه الحقائق بضرب الأمثلة الموضحة لها :

(أ) **ففى المقطع الأول** : قصة أهل الكهف وتبدأ من الآية (9 - 27) :

فبعد عرضها الإجمالي ، وعرضها التحليلي يعقب باستطراد وتعليل يبين بعض الأهداف التربوية ويدخل منها إلى الحديث عن قصة يوسف (213) ويخلص إلى العظات والعبر (216) التي منها سرعة استجابة الفتية لنداء الحق وقبول الله من أصحاب الصدق ،والعناية الربانية بالمخلصين ودور الالتزام بالقيم الحسنة في الذكر الحسن (216 - 218) ·

(ب) **أما المقطع الثانى** : فيبدأ من الآية (28 إلى الآية 46) ·

ويبدأه بالحديث عن المناسبة بينه وبين المقطع الأول والأمثلة حية ، والمناسبة تدور حول مسألة الصراع بين الحق والباطل والأغنياء والفقراء والقيم التى يحتـــكم إليها كل من الطرفين (222) ثم يعرض المعانى عرضا عاما وينتهى إلى العـــبر والعـــظات (234) ·

(ج) **المقطع الثالث** : ويبدأ من الآية (47 - 59) :

ويعده بمثابة تعقيب على المقطع السابق الذي تحدث عن صاحب الجنتين ، والمناسبة بينهما تكمن في أن الباقيات الصالحات تظهر يوم القيامة وأن تزيين الحياة الدنيا من عمل الشيطان ، وأن ميزان القيم الصحيحة لاتستند إلى النسب والثروة ، وبعد العرض الإجمالى يأتي الحديث عن العبر والعظات ثم يعقب ببيان القيم الزائفة : كزوال الزينة وتحكيم الهوى واتخاذ إبليس قدوة ·

(د) **المقطع الرابع** : (61 - 82) :

ويبدأه بالحديث عن المناسبة بينه وبين ما قبله ، ففي المقطع عرض سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر وفيه تناول قيمة العلم وفي المقطع السابق تناول قيمة المال والرجال ، وفي الأول تناول قيمة السلطة والسلطان ·

ثم يعرض القصة عرضا إجماليا مبينا أنها تحتوى على الإخبار بانطلاق موسى عليه السلام في البحث عن العبد الصالح ، ثم اللقاء والحوار ، ثم الأحداث العجيبة ثم التأويل والفراق ، ويتخلل ذلك حديث عن العظات والعبر ، ويخلص إلى بيان القيم من خلال هذه القصة وعلى رأسها قيمة العلم بمظهرية الخفى والظاهر ·

(هـ) **المقطع الخامس** : ويمثل قصة ذي القرنين الرجل الطواف (83 - 98) :

ويبين أن المناسبة بينه وبين المقاطع السابقة تكمن في المقارنة بين السلطان الغاشم والحاكم الصالح الذى مكن له في الأرض وأوتى من كل شىء سببا بما في ذلك القيم السابقة : المال والعلم والسلطة والإيمان ، ثم يقوم بعرض مجمل للمقطع يتخلله حديث عن حقيقة ذي القرنين وموقع السد وحقيقة يأجوج ومأجوج ثم يعقب عليها ببيان القيم في قصة ذي القرنين ومنها : تسخير السلطة لتنفيذ شرع الله ،والبعد عن الغرور عند الشعور بالقوة أيا كانت ،والأخذ بالأسباب الخفية والظاهرة لبلوغ الهدف ، وفى الوقت نفسه هناك بيان للقيم الزائفة : كالكفر والتخلف والإفساد فى الأرض .

(و) **الخاتمة** : وترتبط بالمقدمة لتضمنها جملة من الحقائق المعروضة فى المقدمة . **نقد وتقييم** :

الدراسة جادة ما في ذلك شك وقد أفادت في تقديم الموضوع من زاوية القيم ، ولكن في الحديث عنه أهداف السورة التى ذكر ثلاثا منها فقط وهي الدعوة إلى التوحيد وبيان صدق الرسول - ﷺ - والدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر ، ولم يعرض للقيم ،ولهذا السبب يمكن أن نتساءل كيف يكون موضوع السورة هو القيم ولا تكون القيم أحد الأهداف ، وقد كان سيد قطب قد بين أن « **محور السورة هو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج الفكر والنظر ، وتصحيح القيم بميزان العقيدة** » (1) .

ثم إن الدراسة كانت تقع أحيانا في استطرادات كان يمكن ألا تتخلل الدراسة كالحديث عن مزايا القصص القرآنى (ص 200 - 203) .

والدراسة بعد ذلك لم تخرج بتصور كامل لموضوع السورة ؛ وإنما قد اكتفت بعرض المقاطع مع مراعاة التناسب بينها . مما يجعلنا نبقى حائرين ومتسائلين : ما هو موضوع السورة ؟ وهل كان هو القيم فعلا ؟ .

---

(1) فى ظلال القرآن : ج 1 ص 2259 .

وربما لم ينته إلى الموضوع الحقيقي للسورة لأن تحليله للافتتاحية لم يكن مركزا بحيث يقيم قاعدة أساسية لها بعدها المعنى المجمل الذى تفصله بقية المقاطع ، ولم يول اهتماما بمناسبة افتتاحية هذه السورة لخاتمة السـورة السابقة التى ختمت بقوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الحَمْدُ لله الَّذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْملْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾(1) .

وسورة الكهف بدئت كما يقول الشيخ بيوض بالحمد والتكبير وهو ما انتهت به سورة الإسراء كما رأينا ، وهناك تلازم من حيث إن سورة الإسراء والمعراج وسورة الكهف فيها تشريف بإنزال الكتاب والتناسب بين الأمرين ظاهر (2) .

وقد جاء في ملاك التأويل للغرناطى قوله « وأمّا سورة الكهف فإنها لما انطوت على التعريف بقصص أصحاب الكهف ولقاء موسى عليه السلام بالخضر ، وما كان من أمرهما ، وذكر الرجل الطواف وبلوغه مطلع الشمس ومغربها وبنائه سد يأجوج ومأجوج ، وكل هذا إخبار بما لا مجال للعقل فى إدراكه ولا تعرف حقيقته إلاّ بالوحى والإنباء الصدق الذى لاعوج فيه ولا أمت ولا زيغ ناسب ذلك ذكر افتتاح السورة المعرفة بذلك الوحى المقطوع به قوله : ﴿ الحمْدُ لله الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا ﴾ (3) .

وعند النظر إلى خاتمة الإسراء وفاتحة الكهف نجد الحديث عن الثناء المقترن بالتوحيد والتنويه عن اتخاذ الولد والشريك فى الملك ، وفى ذلك بيان بأن موضوع السورة عقدي في الأساس يستهدف إصلاح الأفكار فى جهة الكفء والشريك ، ووسيلة ذلك هى الوحى الذى أساسه الكتاب الذى أنزل على عبده محمد - ﷺ - خاليا من أى اعوجاج ؛ لأن الله حفظه من التحريف ليحفظ الحقيقة كما يريدها الله حفظا مطلقا .

والقرآن بعد ذلك « قيّم » ، والقيم بهذا المعنى ضرب فى الهيمنة والسيطرة

---

(1) الإسراء : 111 .

(2) فى رحاب القرآن : ص 11 من تفسير سورة الكهف .

(3) الغرناطى : ملاك التأويل 1 / 157 .

على غيره من الكتب كما دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ ، فهو قيِّم على سائر الكتب وشرائعها [1] .

ولهذا السبب يبدو لي - والله أعلم - أن موضوع السورة أساسا هو « دور الوحى في تصحيح المفاهيم والمعتقدات » ، وستكون القيم عندئذ هى أحد المفاهيم التى يقوم بتصحيحها الوحى ، ومعنى ذلك أن الموضوع يرتبط بالمطلع كما سبق أن أشرنا .

يقول الرازى : « بينا أن قوله ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجًا ﴾ يدل على كونه كاملا فى ذاته وقوله ﴿ قَيِّمًا ﴾ يدل على كونه مكملا لغيره وكونه كاملا فى ذاته متقدم بالطبع على كونه مكملا لغيره » [2] .

ويقول ابن عاشور « افتتحت بالتحميد على إنزال الكتاب للتنويه بالقرآن تطاولا من الله تعالى على المشركين وملقنيهم من أهل الكتاب » .

* * *

(1) فى رحاب القرآن : 23 . المائدة : 48 .

(2) تفسير الرازى : ج 11 ص 76 .

8 - قراءة في تفسير « الأساس في التفسير » لسعيد حوى

هذا التفسير الذى أنجزه سعيد حوى ، وهو فى السجن ، يتميز بالتركيز على الوحدة الموضوعية في السورة ، بل إن صاحبه يصرح في المقدمة بأن هدفه الأكبر من إنجاز هذا التفسير هو تقديم « نظرية جديدة في موضوع الوحدة القرآنية » [1] .

وهنا نتساءل : هل وفق في تقديم هذه النظرية ؟

ما هي القواعد التى بنيت عليها ؟

ما مدى نجاحه فى تطبيقها ؟

ولكي نجيب عن هذه التساؤلات لابد من دراسة عميقة للمقدمة من جهة ، لأنها تحتوي على الأفكار النظرية التي تقوم عليها ادعاءاته وافتراضاته كلها ، ثم نتبعها بدراسة عميقة لبعض النماذج التطبيقية التي تكشف صحة أو خطأ تلك الادعاءات · وسنخلص من كل ذلك إلى تقييم نقدى للتفسير كله ·

(أولا) دراسة المقدمة :

يقدم حوّى لهذا التفسير بمقدمتين : مقدمة عامة تبين العلاقة بين كتب ثلاثة تعد بمثابة سلسلة هى : الأساس في التفسير ، والأساس في السنة وفقهها ، والأساس في قواعد المعرفة وضوابط الفهم للنصوص ، وهى كتب تشترك في المصطلح العام (الأساس) وتختلف بعد ذلك فى المادة المعرفية ،ولقد شعر صاحبها بذلك فاعتذر للقارىء لئلا يتوشم أن استعمال مصطلح « الأساس » هو بمثابة تزكية لها [2] ، ولكنه فى الحقيقة يعود ليدعى فى موضع آخر بأن هذه السلسلة تعطى القارىء أساسا في فهم القرآن وأساسا في فهم السنة وفقهها [3] .

---

(1) سعيد حوى : الأساس فى التفسير 1 / 21 ·

(2) نفسه : ص 7 ·

(3) نفسه : 1 / 8 ·

وفى هذه المقدمة العامة يعرض المفسر دعاوى يستهدف من خلالها تبرير التأليف لكل كتاب من هذه السلسلة الثلاثية الأبعاد ، فيبدأ بالقرآن مبينا أن الدافع لذلك هو محاولة حل مشكلات أساسية منها :

الوحدة القرآنية التى عجز القدماء عن البرهنة عليها ومنّ الله عليه في أن يسد الثغرة ويصحح الغلط ، ومنها تقديم جواب عن تساؤلات حول قضايا فى العلوم الحديثة ، ومنها البرهنة على إمكانية إقامة حياة اجتماعية واقتصادية وسياسية تنبثق من القرآن ، ومنها إحداث المطابقة بين الشخصية الإسلامية والخلق القرآنى ، بحيث تكون الحياة تجسيداً له ، ومنها تيسير الفهم على قارىء التفسير ، ومنها الوقوف على بعض القضايا الإسلامية التى كانت بسبب الخلافات المذهبية [1] .

وقد بيَّن أن مراجعه فى هذا التفسير قليلة بسبب أن إنجازه قد تم فى السجن ، مما جعله يكتفى بتفسير ابن كثير وتفسير النسفى معللا ذلك بكون الأول يغلب عليه المأثور والثانى يغلب عليه اختصار الأمور الاعتقادية والمذهبية [2] .

وقد كان المفسر صريحا في مسألة الصياغة إذ أنه كما يقول : « إننى كعادتى في كل ما أجمعه لا أكلف نفسي عناء صياغة شيء يحتاجه كتابي ، إذا كان غيري قد صاغه الصياغة التي أرضاها » [3] .

كما كان صريحا كذلك في بيان الهدف من التفسير المعاصر في رأيه ، فهو يرى أن مسألة العقيدة ينبغي أن توضع فى أولويات الأهداف بحيث « إذا لم تخدم قضية الإيمان فيه - أي في التفسير - في عصرنا المادي والشهواني فكأن المفسر لم يفعل شيئا » [4] .

وهو يرشح تفسيره لهذه المهمة ، ويرى أن تفاسير كثيرة تركز على النكت والشروح والفوائد ومناقشة الخصوم ، ولكن تفسيره يتميز عنها لأن صاحبه يريده « أن

---

(1) نفسه : ص 9 - 10 .
(2) نفسه : 1 / 11 .
(3) نفسه .
(4) نفسه : 1 / 13 .

يكون أداة لرفع درجات اليقين ، بحيث لا يخلص القارىء من صفحة إلى صفحة إلا وقد ارتقى يقينه ، هذا من تصحيح التصورات وزيادة العلم » [1] .

ثم إن سعيد حوى فى هذه المقدمة العامة قدم مبررات لتأليف كتبه كلها ، ولكن ليس هذا موضوع حديثنا ،وإلا فقد قدم مبررات كل السلاسل التى أنتجها فى الحقل المعرفي المعاصر لخدمة الإسلام : في المقدمة العامة لتفسيره « الأساس » .

وعلى أن موضوعنا الأساسى هو كتابه « الأساس فى التفسير » فإن ذلك يقتضى الانتقال إلى المقدمة الخاصة بالتفسير لنبين عناصرها .

عناصر المقدمة الخاصة :

أول ما ينص عليه هذا المفسر فى المقدمة الخاصة بتفسير الأساس هو إن « الخاصية الأولى لهذا التفسير ، وقد تكون ميزته الرئيسية أنه قدم لأول مرة - فيما اعلم - نظرية جديدة في موضوع الوحدة القرآنية » [2] ولا شك أن التصريح بإنشاء في « ضوء نظرية شاملة تحتوي مفاتيح الوحدة القرآنية » [3] هو من التصريحات الخطيرة في منهج المفسر لأن ادعاء مثل هذا في المقدمة يلزم صاحبه في التطبيق من جهة ، ويلزمه ببيان أسس تلك النظرية من جهة ثانية .

ثم إن هذا المفسر يدعى السبق والأولوية فى هذا المنهج ، ناسيا أن البقاعى فى كتابه « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور » قد أبدع وأجاد ، خاصة وأنه قد انتبه إلى مسألة التناسب بين الأجزاء وأشار إلى إمكانية تسمية كتابه هذا باسم آخر هو : « فتح الرحمن فى تناسب اجزاء القرآن » ، وبين أن هذا التفسير يقوم على « علم المناسبات » وهو : « علم تعرف من علل الترتيب وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسباته من حيث الترتيب ، وثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ماله بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب ، فعلم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه ، وهو سر البلاغة لأدائه إلى

---

(1) نفسه : 1 / 13 .　　(2) نفسه : ص 21 .
(3) نفسه .

تحقيق مطابقة المعانى لما اقتضاه من الحال ، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها » [1] .

ومن الواضح أن البقاعى يعد المرتكز في تفسيره هو « علم المراسلات » ويشرح القصد من ذلك مبينا ثمرة هذا العلم ومقصوده ، تماما كما أن سعيد حوى يعد المرتكز هو نظرية الوحدة الموضوعية .

ومعنى ذلك أن كليهما يستهدف البرهنة على الوحدة القرآنية بعلم قائم بذاته ، وليس بينهما من فرق سوى في استخدام المصطلح ، إذ يجعله البقاعى « علما » ويعده الثانى « نظرية » .

بل إن كليهما ينشد من تفسير تثبيت مسألة العقيدة فى النفوس ؛ فالبقاعى كان قد سبق سعيد حوى إلى هذا الهدف وبين أنه « بهذا العلم يرسخ الإيمان فى القلب ويتمكن من اللب ، وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين أحدهما : نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب ، والثانى : نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب » [2] .

وبين البقاعى أن منهجه يعين القارىء على تحقيق أمور ثلاثة ؛ أما الأول : فهو الوقوف على وجه الحق فى « معانى آيات حار فيها المفسرون لتضييع هذا الباب من غير ارتياب » [3] ، وأما الثانى فهو بيان « أسرار القصص المكررات ، وأن كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى ادعي في تلك السورة واستدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذى سبقت له فى السورة السابقة » [4] ، وأما الثالث فهو الترابط الشامل للقرآن أو ما أسماه سعيد حوى « الوحدة القرآنية » فبهذا المنهج كما يرى البقاعى : « يتضح أنه لا وقف تام فى كتاب الله ولا على آخر سورة ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ، بل هى متصلة مع كونها آخر القرآن بالفاتحة التى هى أوله كاتصالها بما قبلها بل أشد » [5] .

---

(1) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور : ج 1 ص 5 .
(2) نفسه : 1 / 7 .   (3) نفسه : 1 / 9 .
(4) نفسه : 1 / 9 .
(5) نظم الدرر : 1 / 9 .

ومن العجيب أن سعيد حوى الذى لم يطلع على جهود البقاعى العظيمة بشأن الوحدة القرآنية قد هزه الشعور بالتفوق فقال : « فلقد دندن علماؤنا حول هذا الموضوع ولم يستوعبوه واستوعبته بفضل الله وأشاروا إليه ولم يفصلوا فيه ، ولقد فصلت فيه تفصيلا استوعب الآيات فى السورة الواحدة والسور في القرآن كله على ضوء نظرية شاملة أثبت البحث صحتها ، وهى تعطى الجواب على كثير من الأمور مما له صلة بوحدة السورة ووحدة المجموعة القرآنية ، ووحدة القسم القرآنى ثم في الوحدة ثم في الوحدة القرآنية كلها ، وبدون هذه النظرية فإن كثيرا من الصلات التى تحدث عنها المتحدثون إنما تتحقق بنوع من الاستكراه » [1] .

والحق أن كثيرا من العبارات التي يذكرها سعيد حوى تجد لها مثيلا في نظم الدرر للبقاعى ، ومن يقارن يتبين ذلك بيسر وسهولة ، ولكن مع ذلك فإن هذا المفسر قد يكون معذورا ؛ لانه ذكر في مقدمة « الأساس » ما يفيد أنه لم يطلع على تفسير البقاعى [3] .

لم تكن المقدمة الخاصة قد توقفت عند الادعاء السابق المتعلق بالسبق إلى تفسير القرآن على ضوء النظرية ، بل طرحت ادعاءات أخرى منها :

1 - أن لا أحد من القدماء يستوعب القرآن كله بذكر الربط والمناسبة بين الآيات فى السورة الواحدة وبين سور القرآن بعضهـا مع بعض على ضوء نظرية شاملة [3] .

وهو ادعاء يبطله بالتأكيد كتاب « نظم الدرر » الذي فسر فيه البقاعي القرآن كله على ضوء علم المناسبة الذي يعد نظرية قائمة بنفسها يمكن أن تكون موضوعا لبحث في درجة الدكتوراه ، وقد لاحظنا قبل ذلك الربط المشار إليه في ما بين فاتحة الكتاب وسورة الناس .

2 - والادعاءات الأخرى التى يذكرها سعيد حوى في تفسيره هي أن طريقته تروى ظمأ طلاب المعرفة والباحثين على دقائق أسرار هذا القرآن كما أنها تضع لبنة في

---

(1) الأساس فى التفسير : 1 / 23 . (2) نفسه : 1 / 24 .
(3) نفسه : ص 24 .

صرح الحديث عن إعجاز القرآن ومعجزاته ، كما أنها تجيب على تساؤلات كثيرة من جملتها موضوع فواتح السور وقضية ترتيب سور القرآن ، والإجابة على السؤال القائل : لماذا لم تكن المعانى ذات المضمون الواحد موجود بجانب بعضها ، والبرهنة على أن هذا القرآن يستحيل أن يكون بشرى المصدر [1] .

وهى كلها أمور لا يكاد يخلو منها تفسير من تفاسير القدماء إذ كل تفسير يتوقف عند تلك القضايا المختلفة ، سواء تلك التى يقتضيها زمان المفسر ومكانه ، أو تلك التى يطرحها التواصل الفكرى بين السابقتين واللاحقتين عبر تاريخ التفسير ، ومن يقرأ تفسير الرازى أو الزمخشرى أو ابن عطية يلمس ذلك بوضوح شديد ، وقد ألمحنا قبل ذلك إلى أن الغرض الذى يستهدفه البقاعى من تفسيره هو كشف الإعجاز .

3 - هناك ادعاء آخر تقدمه مقدمة الأساس هو أن المفسر يمكنه أن يقدم من خلال منهجه أنواعا أخرى من المعانى لا نهاية لها ، ولا يمكن الإحاطة بها ، لأن تقديمها لا يتفق إلا لمن فسر القرآن من خلال سياق الآية فى السورة وصلات السور ببعضها من جهة ، وصلات الآيات والسور بالقرآن كله [2] .

وهذا يعنى أن هذا - من جهة ثانية - النمط من التفسير يسعف صاحبه على توليد معانى لا يجود بها النص حين يفسر بالصورة التحليلية الخالية من مراعاة السياقات السابقة الذكر .

4 - هذا ، وهناك نقاط أخرى تناولتها المقدمة تتعلق بجوانب منهجية ، منها الاستفادة من التراث ونقده ، ومنها التبسيط في الشرح ، ومنها التقيد بعبارات العلماء ومصطلحاتهم ، ومنها استبعاد ما ليس علميا ، والاستفادة من مزايا العصر الكبرى ، ومنها تحرير التفسير من آثار الثقافات الخاطئة والتبصر بالواقع .

وهى فى معظمها ملاحظات منهجية ، غير أن المفسر يذكر مسألتين تبدوان حشوا في المنهج ، وأنها كانت خصائص ذاتية يفرضها الانتماء الحركى ، وهما : بيان منهج جماعة المسلمين ، وبيان أن القرآن كتاب دعوة وتربية [3] .

---

(1) الأساس فى التفسير : 1 / 25 . (2) نفسه : 1 / 28 .

(3) نفسه : 1 / 28 - 29 .

5 - وخاتمة المقدمة تترجم مصطلحات خاصة يستخدمها المفسر فى رحلته مع القرآن الكريم ، وفيها يبين أن القرآن يتألف من أربعة أقسام هى قسم الـــطوال ثم المئين ثم المثانى ثم المفصل ، وأن الأول ينتهى ببراءة ، والمئين بالقصص والمثانى بسورة (ق) والمفصل بسورة الناس ، ثم بين أنه سيستخدم نمطا من التقســيم هو على التوالى :

1 - القسم ->مجموعات مثلا قسم الطوال - مجموعات .

2 - السورة ->أقسام ->مقاطع ->فقرات ->مجموعات ->آيات .

تقويم المقدمة :

كان الغرض الأساسى من المقدمة هو التعبير عن النظرية التى سيطبقها فى التفسير ؛ ولكن هل وُفق سعيد حوى فى عرض قواعد هذه النظرية ؟ .

فى الواقع المفسر لم يكشف عن تلك القــواعد على المستوى النظري كشفا كاملا ، وإنما كل ما فعله هو عرض ادعاءات سيثبت مصداقيتها التطبيق ، وهو نفسه كان يشير إلى ذلك فى مقدمته بقوله : « وليست هذه المقدمة هى محل عرض هذا الاتجاه فى موضوع فهم الوحدة القرآنية » [1] .

والاتجاه الذى يشير إليه هو الادعاء « السور السبع التي جاءت بعد البقرة ، وهي التي تشكل مع سورة البقرة القسم الأول من أقسام القرآن كما سنرى ، هذه السُّوَر التى جاءت بعد سورة البقرة مباشرة أتت على تسلسل معين هو نفس التسلسل الذى جاءت به المعانى فى سورة البقرة ، وأن لكل سورة منها محورًا موجودًا فى سورة البقرة » [2] .

والحق أن هذا الاتجاه قد استهواه كثيرا ، فلم يتوقف عند سورة البقرة والمجموعة التي ينسبها إليها وهي الطوال ، وإنما نلاحظه في غير ذلك ، فهو في تفسير سورة « النبأ » مثلا يذكر أن محور السورة هو قوله تعالى من سورة (البقرة) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[3] ومن ثم نجد

---

(1) الأساس فى التفسير : 1 / 23 . (2) نفسه : 1 / 22 - 23 .

(3) البقرة : 6 .

السورة تبدأ بقوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ فهى تبدأ بذكر تساؤل يطرحه الكافرون وترد عليه وتنتهى السورة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا . . . ﴾ فبداية السورة تتحدث عن تساؤل للكافرين ونهاية السورة تتحدث عن الإنذار ، ولذلك صلاته بمحور السورة ، فسورة النبأ وسورة المرسلات كلاهما تفصل في مقدمة سورة البقرة (1) .

وهذا في الحقيقة - فيما يبدو لى - غلو في البحث عن الترابط في غير موضعه ، وإنما كل ما هنالك أن القرآن كله من عند الله ، وأن الأهداف العامة متشابهة فى جميع السور ، ولذلك لا يبعد أن يقع هذا الاتفاق الذى يبنى عليه اتجاها قد لا يقدم شيئا مهما فى السياق الذى يرمى إليه التفسير القائم على الوحدة الموضوعية .

وسنرى فى دراسة نماذج تطبيقية أن المفسر قد يغالي في بعض نتائج بحثه فيكلف السياق مالا يحتمل .

(ثانيا) التطبيقات :

فسر الشيخ سعيد حوى القرآن الكريم كلّه تفسيرًا تسلسليا بدأها - بعد المقدمتين - بسورة الفاتحة في الجزء الأول ، وأنهاها بتفسير سورة الناس في الجزء الحادى عشر .

وقد اعتمد خطة معينة فى تفسير السور وأجزاء السور الطويلة تقوم على العناصر التالية على الترتيب :

(1) الأساس فى التفسير : 1 / 22 - 23 .

أرقام الخطوات	سورة الفاتحة نموذج	سورة البقرة نموذج	سورة البقرة القسم الأول
1	* فقرات السورة	* كلمة فى القسم الأول من القرآن (الطوال)	
2	* تعريفات	* نصوص ونقول فى سورة البقرة	
3	* بعض ما ورد فى الفاتحة	كلمة فى البقرة وسياقها أولا : مقدمة السورة	* كلمة في القسم الأول من السورة
4	* المعانى العامة والكلية	* الفقرة الأولى * الفقرة الثالثة * المجموعة الأولى : 1- المعاني العامة . 2- المعنى الحرفي . 3- فصول شتى . 4- فوائد . 5- كلمة في السياق	* المقطع الأول من القسم 1- كلمة إجمالية 2- المعنى الحرفي للفقرات كلمة في سياقها 3- فوائد . 4- فصول شتى : المعجزة - العقيدة
5	المعنى الحرفى		
6	* فصول شتى : البسملة - الاستعاذة - الحمد - التأمين - الأداء - خلق الأفعال		
7	* فوائد		*المقطع الثانى من القسم : 1 - كلمة عامة فى السياق 2 -التفسير- المعنى الحرفى 3- فوائد 4 - فصول شتى : - الإسرائيليات - الشيطان ـ الداروينية - كلمة أخيرة فى السباق
8	* كلمة في السياق		

أرقام الخطوات	سورة النبأ نموذج
1	❊ كلمة فى سورة النبأ ومحورها.
2	❊ بين يدى السورة.
3	❊ مقدمة السورة.
4	❊ كلمة في السياق.
	(أ) الفقرة الأولى : كلمة فى سياقها.
	(ب) الفقرة الثانية:
	- تفسير المجموعة (1)
	- تفسير المجموعة (2)
	- كلمة في سياقها.
	(جـ) خاتمة السورة.
	- كلمة في سياقها.
5	❊ الفوائد.
6	❊ كلمة أخيرة في سورة النبأ.

نموذج من تفسير الأساس
« سورة النبأ »

عالج سعيد حوى ضمن تفسيره التسلسلي سورة النبأ ، وكان يستحضر كل إمكاناته العلمية والمنهجية التى أشار إليها في مقدمة التفسير ،ولذلك تضمن تفسيره لهذه السورة خطوات متعددة هي على التوالى : (كلمة في سورة النبأ ومحورها - بين يدي السورة :

- مقدمة السورة - تفسير مقدمة السورة - كلمة فى السياق - الفقرة الأولى - ثم المجموعة الثانية - كلمة فى السياق - ثم كلمة فى السياق - خاتمة السورة - تفسير الخاتمة - كلمة فى السياق - ثم كلمة أخيرة فى سورة النبأ ومجموعتها) [1] .

وهذه العناوين تبين الخطة المتبعة فى التفسير ، وهى خطته فى بيان معالم السورة كما يراها ، وهى كما يبدو - ليست كاملة لأنها أهملت الجانب الشكلى الذى يتضمن الطاقة الصوتية في النص ، ويشير إلى تغيرها بتغير المعاني الجزئية للموضـــوع .

ثم بعد ذلك ، إن العنوان الأول الذي عالج فيه محور السورة ، وهو من العناوين الثابتة مهم ، ولكن أهميته تكمن فى قدرة المفسر في أن يستنبط من المادة الموضوعة أمامه محورها أو موضوعها فعلا ، ومع أن مقدمة السورة قد خصص لها عنوانا ، فإن المفسر لم يجد استغلال مطلع السورة للبرهنة على موضوعها ، وربما حدث ذلك ، لأن المفسر قد فرض فرضية ليست صحيحة ،وهى أن كل سورة من سور القرآن هى بمثابة شرح لمسألة فى سورة البقرة ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية الاتكاء بقوة على المقولات التى ذكرها القدماء بخصوص مفردة « النبأ العظيم » فقد جاء فى الأثر أن معناه عند مجاهد هو القرآن ، وعليه فقد بنى تفسيره للسورة على هذا الفهم ، مع أن التساؤل واضح ، وأن الإجابة عليه أوضح حينما حددت المسألة فى « يوم الفصل » الذى يكشف بوضوح عن موضوع السورة الذى يتفق الجمهور على أنه البعث .

والغريب أن المفسر حين يأتى لآيات ترتبط بالموضوع (البعث) يلوى أعناقها

(1) الأساس : 11 ص 6333 - 6348 .

لتعبر عن موضوع « القرآن » ، كما فى قوله : « في الخاتمة : ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ ﴾ يشير إلى القرآن الذى به كان الإنذار وذلك يجعلنا نستأنس لصحة ما اتجهنا إليه فى النبأ العظيم هو القرآن » .

قلنا إن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم لاَ يُؤْمِنُونَ .. ﴾ ومقدمة سورة النبأ أرتنا موقفا للكافرين وأشعرتنا أنهم لا يؤمنون وأفهمتنا أن أمامهم عذابا عظيما : ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ [1] .

إن هذا الخطأ خطأ منهجى يخترق تفسير سعيد حوى كله ، لقد كان بمثابة فكرة مسبقة مفادها أن القرآن الكريم تفصيل لما أجمل فى سورة البقرة .

ثم إننا نجد هذا الخطأ يعوق فهم الوحدة الموضوعية حتى فى السور القصيرة التى تعد الوحدة الموضوعية فيها أوضح ما تكون . ففى سورة الهمزة مثلا يحدثنا عن موضوعها ويحدده كما يلى : « بعد الآيات الخمس الأولى من سورة البقرة والتى فصلت فيها سورة العصر يأتى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ ... ﴾ الملاحظ أن سورة الهمزة تتحدث عن الكافرين وعذابهم العظيم ، وتذكر بعض صفات الكافرين الرئيسية فتعرفنا على الأسباب التى استحقوا بها أن يختم الله عز وجل على قلوبهم وعلى سمعهم ... فالسورة واضحة الصلة بالمحور الذى ذكرناه من مقدمة سورة البقرة » [2] .

ويتكرر الأمر بالنسبة لسورة الفيل ، فعنده « محور سورة الفيل هو محور سورة الهمزة نفسه وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم لاَ يُؤْمِنُونَ ... ﴾ إنك لو وضعت بعد هاتين الآيتين قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ لوجدت المعنى منسجما [3] . والأمر نفسه يتكرر فى تحليله لموضوع سورة قريش ، ومعنى كل ذلك أن سعيد حوى يريد أن يبرهن على فرضية خاطئة افترضها وهو في صباه ، مما دفعه إلى أن يلوى أعناق النصوص ليا لا يقبله المنطق العلمى السليم .

* * *

---

(1) نفسه : 11 / 6336 . (2) نفسه : 11 / 6675 . (3) نفسه : 11 / 668 .

فهرس الموضوعات

الصفحة

رقم الإيداع	١٨٦٦ / ٩٨
I. S. B. N الترقيم الدولى	977-19-5265-X